الباب الأول

التاريخ الدّيني لبلاد السّودان

الفصل الأول

دخول النصرانيّة والإسلام بلاد السّودان

المبحث الأوّل
دخول النصرانيّة

تمهيد :

يكتنف البحث في التاريخ الديني لبلاد السودان الكثير من التساؤلات ، فهو بحث متشابك الأطراف تتقاسمه المداخل المنهجية النظرية الباحثة في حيثيات اتصال النصرانية والإسلام بأرض السودان ، والمتقصية للتعدّد المذهبي في الإطار النصراني ، وذلك للتفريق بين نمطين دينيّين:

- النمط الأوّل: النصرانية الدينية أو التاريخية ، ونعني بذلك العقيدة الدينية المتمثّلة في اتّجاه ديني يعرف بمسمّى النصرانية مثل اليهودية والإسلام ، وكذلك نعني بها البدايات الأولى لدخول النصرانية بلاد السودان. مع الأخذ في الاعتبار كلّ الروايات الموثّقة وكذلك المتناقلة تراثا من جملة القصص الشعبي الروائي.

- النمط الثاني: النصرانية الإيديولوجية (النصرانية في خدمة الاستعمار) ، ونعني بذلك علاقة الإرساليات التبشيرية بالاستعمار البريطاني ، حيث تحوّلت النصرانية من معتقد ديني إلى أداة طيّعة تأطّر المجتمع في المشروع الاستعماري ، يستهدف عرقلة الدعوة الإسلامية التي وجدت قبولا بالحدود الجنوبية السودانية ، وكذلك قطع الطريق أمام الثقافة العربية الإسلامية ، بعزل مناطق الجنوب ومنع أي إمكانية تواصل بين أطراف إفريقيا المتاخمة للعمق القاري أو اجتياز الجدار الاستعماري ، الذي أقامته السلطات البريطانية ، والمتمثل في التقسيم المقصود للمناطق الجنوبية بين مختلف الإرساليات التبشيرية.

وهدفنا من هذه المقدمة الأولية :

ـ معرفة المعطيات التاريخية المفقودة والغائبة عن الوعي العام ، أو التي أريد طمسها قصداً لتعميق هوّة التناقض بين مكوّنات المجتمع السوداني. وما نريد أن

نلفت إليه نظر القارئ والباحث خاصّة هو أن كثيراً من التواريخ المعتمدة في هذا المبحث ، خاصة المتصلة بالحقبة النصرانية الأولى ، في أغلبها افتراضي نسبي ، وذلك للنقص الكبير في المادة الأولية المتعلّقة بالمصادر التاريخية الشاهدة على تلك الحقبة. ولقد حرصنا على الاستفادة من المصادر التاريخية الإسلامية المعروفة ، برغم عدم تركيزها على التوثيق الدقيق لتاريخ الأمم الأخرى بما يشفي الغليل مثل عرضها لتفاصيل التاريخ الإسلامي ، وهو ما نلاحظه في الاتّصال الأوّل بين الإسلام وأطراف السودان الشمالي حيث أرض النوبة ، وما تخلّله من اتفاقيات أمنية وتبادلية وعقود صلح.

ـ تعداد عوامل الوحدة الوطنية والمشترك الاجتماعي ممّا له دور في تحقيق الأمن النفسي والسلم الديني ، الذي طبع بحسب الملاحظات الأولى النسيج المجتمعي السوداني ، في كلّ تفاصيل الحياة بالأحياء والسوق والإدارة.

ـ معرفة مدى تأثير حركة الاستعمار على البنية الاجتماعية والدينية والثقافية السودانية ، وإلى أي حدّ يمكن تحميله مسؤولية التصدّع التاريخي في بناء الثقة والتوحّد بين شَطرَي البلاد ، وذلك لخطورة مشروع تقسيم السودان على أساس عرقي ولغوي وديني ، يفصل بين جنوب « إفريقي زنجي نصراني » ، وشمال عربي إسلامي ، والذي عُرِف لاحقا بقانون « المناطق المقفولة » .

ـ المقارنة والمقاربة بين عقائد ومبادئ وقيم النصرانية التاريخية ، وسماحة خُلُق المسالمة التي طُبعت عليه ، وبين السلوك العدواني المكتسب وأثر السياسة الاستعمارية في ذلك ، هذا إلى جانب تطوّر أجهزتها الإدارية بما يتّفق ويخدم تلك السياسة وذلك التوجّه ، ممّا يتنافى مع تلك الخصائص الأصلية.

النصرانية الدينية (التاريخية):

ظلّت النّوبة حتى القرن الرّابع الميلادي ، أرضاً خالية من رايات الدّين السماوي ، إلا ما استثنيَ من الإبراهيمية التي اصطبغت بعوامل التاريخ ، أو الموسوية التي وصل بعض دعاتها إلى أطراف النوبة يبشرون بمبادئ التوحيد بعد

أن نالها من التشويش ما أفقدها أهميتها. وقد ظلت هذه الديار لفترة طويلة في تداخل حضاري مع مصر وجزيرة العرب ، ممّا سهّل انتشار النصرانية فيها ، خاصة وقد أحاطت بها من جهة مصر وأثيوبيا وشمال أفريقيا.

ولا يمكن موضوعياً تحديد تاريخ معين لدخول النصرانية بلاد السودان ، إلا بتعيين فترات زمنية كبرى ، تمثّل فيها مرحلة انهيار دولة مَرَوِي وما تبعها من اضطراب وفوضى إرهاصات معتبرة ، خاصة إذا أضيف إلى ذلك الاضطهاد الدّيني الذي مارسه الرومان في مصر. أمّا عن مصادر التّأْريخ فأغلبها تشير إلى عدة أحداث إذا أُلّف بينها يمكن أن تعتمد كمحطات تاريخية تكوّن لنا تصوّرا أوّليا عن حيثيات دخول النصرانية بلاد السودان. وقد أُرجِعت البدايات الأولى إلى دخول بعض معتنقي النصرانية « الأجانب » بلاد النّوبة كمسافرين عابرين للأرض الرّابطة بين مصر والحبشة.

ويعتبر خصي من حاشية كنداكة (ملكة مروي كبوشية) أول نوبي تَنصَّر ، هذا إذا ثبتت صِحَّة النّص الدّيني الوارد في أعمال الرسل (٨/ ٢٦-٣٩) ، أمّا عن خبر دخول « مَتَّى » أرض السودان ، أو انتظام كنيسة نصرانية في أرض النّوبة إثر تَنصّر الخَصِيِّ المذكور أعلاه ، فهو مجرَّد معطى تاريخي ضعيف ورد ذكره في كتاب « هوريجنوس » الإسكندري (٢٥٠م) ، إذ لا وجود لما يعضده في المصادر التاريخية النصرانية المصرية العائدة إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي.

ولَّما أمر قياصرة روما (٢٠٠-٣٠٠م) باضطهاد النصارى فرّ كثير منهم إلى الصحارى المقفرة والصعيد الأعلى ، وبذلك اتّصل بعض الرهبان القاطنين في أسوان بالنوبة والبلميِّين عبر الحدود مما مكّنهم من تنصير بعضهم. وبعد انتهاء فترة الاضطهاد ظلّت البعثات التبشيرية في شكل أفراد توالي نشاطها في بلاد النوبة ، فلمع اسم « تيودور » أسقف فِيَلة وأسوان ، حيث عاش كرجل دين قرابة خمسين عاماً ، تعرّف فيها على زعماء النوبة فيما وراء الشلاّل الأوّل وزار بلادهم ، ثم قام بين النوبيين زعيم يدعى « سلكو » تحمَّس للدّين الجديد.

وقد تنصّر ملك نوباطيا على يد الكاهن « يوليانوس » الذي يبشِّر بالعقيدة

اليعقوبية (القبطية) خلافاً لمبدأ الإمبراطور البيزنطي « جوستلنيانوس » المؤيّد للمجمع المسكوني الخلقيدوني ، والذي كان في صراع دائم مع زوجته « تيودورا » المصرية الأصل الموالية للأقباط الأرثوذكس. أمّا عن انتشار النصرانية في مملكة المقرة ، فالرّاجح أن له علاقة بموفدي الإمبراطور البيزنطي الذي رفضهم ملك نوباطيا ، وذلك لاعتناق هذه المملكة لتعاليم المجمع الخلقيدوني ، ويسند ذلك اعتناق قبائل « القرعان » النصرانية حسب نفس التعاليم الخلقيدونية ، وذلك لقربهم من المقرة ، وكذلك لإرسالهم وفداً إلى الإمبراطور البيزنطي لعقد معاهدة معه ، وسائلين أن يتعلّموا الدِّين الجديد حسب معتقداته هو ، فأجابهم لذلك [١] .

ودخلت مملكة علوة النصرانية عملياً على يد الأسقف « لونجينوس » وأصبحت ديانة المملكة الرسمية بعد أن شرح مبادئها للملك وحاشيته والأعيان وبقية الشعب حسب معتقدات اليعاقبة ، ثم سعى لتنظيم الكنيسة في مملكة نوباطيا فرَسَّم الكهنة وأقام شمامسة وأنشأ أديرة للرهبان ، واستقدم كتباً للصلوات والأنجيل ، وشيَّد كنيسة واحدة ـ لا يعرف مكانها الآن بالتحديد ـ كما أنّ الآثار تدلّ على أنّ كثيراً من الهياكل الوثنية قد حُوِّلت إلى كنائس كما تُوضّح ذلك العديد من الرسوم والكلمات: كالصَّليب الذي وضع على واجهة معبد الأصنام القديم في بلدة «وندور» والكنيسة الموجودة داخل المعبد الفرعوني بداكة ، والصَّليب الموجود على مدخل معبد «كلابشة» ، كما أزيلت رسوم الفراعنة من معبد «وادي السبوعية» وحلَّت مكانها رسوم السيّد المسيح والحواريين والقديسين ، وكذلك معبد « بوهين » [٢] .

علاقة الأقباط بالنوبة:

شهدت النوبة تغيّرا جوهريا في المعتقدات والمراسم الدينية منذ انتقال كل

---

(١) الأب ، د.ج. فانتيتي: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم ١٩٧٨، ص ٤٨.

(٢) فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ، ص ٥٠.

الكراسي الأسقفية بالنّوبة إلى رئاسة بطريرك الإسكندرية القبطي الأرثوذكسي ، وذلك بدعم من الملك « مرقوريوس » الذي كان تابعاً لعقيدة البطريق القبطي. وقد تم هذا التغيير في نظام الكنيسة النوبية نتيجة لسياسة الخلفاء الأمويين وأمرائهم في مصر ، الرامية إلى فصل النوبة عن اليونان ، ولذلك منعوا أساقفة النوبة التابعين لطائفة الروم من الاتصال ببطريرك الطائفة الرومية بالإسكندرية.

وبهروب « جرجيس » البطريرك الرومي من الإسكندرية إلى القسطنطينية السنة الثالثة لخلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بقيَ كرسي الإسكندرية من غير بطريرك ملكي لقرابة سبعة وستين سنة ، فتغلبت لذلك اليعقوبية (الأقباط) ، على جميع الكنائس بمصر ، ولّما احتاجت بلاد النوبة إلى أساقفة رسم لهم بطريرك اليعقوبية أساقفة من طائفته ، فصارت النوبة من ذلك الحين تابعة للكنيسة اليعقوبية[١]. ويعتبر هذا الواقع السمة العامة للتاريخ الديني النوبي الذي لم يتخذ له جذوراً وطنية عميقة وذلك لأسباب منها:

ـ لم تمثل المسيحية بالنوبة اتجاهاً وطنياً أو قومياً كما كان الحال في مصر ، حيث اعتنق المصريون المسيحية كمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الروماني الأجنبي.

ـ كانت الاضطهادات الرومانية للمسيحية بمصر ومحاولة فصلهم عن أصولهم الدينية من أسباب تقوية جذورها في نفوس الذين ظلّوا ثابتين على ديانتهم.

ـ عاشت المسيحية في النوبة إلى جانب الأفكار الدينية الوثنية فلم تقلع هذه الأفكار أو تصحّحها تدريجيا ، وذلك لأن اعتناق النوبيين لها لم يكن عن عقيدة وفهم وتعمّق ودراسة.

ـ ظلت الكنيسة المصرية تعامل الكنيسة النوبية كطفل صغير فتعيّن لهم المطارنة كما تعيّن جميع رجال الدين ، وقد كان جميعهم من المصريين ، عاش

---

(١) فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، ص:٧٥.

أغلبهم في عزلة وعدم تجاوب مع الشعب النوبي ، وبعيداً عن مشاغلهم ومشاكلهم ، فظلت الكنيسة المصرية ورجالها يمثلون عنصراً أجنبياً.

ـ كانت الطقوس الدينية تُؤدَّى بلغة أجنبية (اللّغة القبطية) لم يعرفها الشعب ولم يقف على أسرارها ، فلم يتفاعل مع مضامينها الدينية.

ـ لم يحدث أن خرج من النوبيين في هذه الفترة علماء مختصّون في اللاّهوت أو الفلسفة الدينية ، مستمدّين تجاربهم من القدِّيسين والشهداء كما في مصر. فلم يكن لهم بذلك تراث ديني وطني يفتخرون به ويدافعون عنه ويتفاعلون معه ، بالدرجة التي تؤهّلهم لوضع مصنّفات وإنشاء معارف دينية أصيلة.

تعتبر تلك الأسباب أهم العوامل في انهيار مملكة النوبة ، إضافة إلى:

ـ تعرض مملكة النوبة لضغط من الشمال والجنوب. ففي الشمال قوة العرب الذين استقروا في مصر منذ القرن السابع الميلادي ، وفي الجنوب القبائل الزنجية ، وتوغّلها شمالاً كلّما سنحت الظروف.

ـ ضعف ملوك النوبة وانقسام الأسرة المالكة إلى عدد من الأمراء المتنافسين على العرش ، وضعف العلاقة بين مملكة النوبة الشمالية وبين مملكة علوة والتنافس بين المملكتين ممّا أدّى لضعفهما.

ـ عجز السلطة النوبية عن حماية رعاياها ، الذين أصبحوا هدفاً سهلاً لتجار الرقيق ممّا دفعهم إلى اللجوء إلى القبائل العربية التي استوطنت بلادهم طلبا لحمايتهم.

ـ تتالي الهجرات العربية نحو بلاد النوبة ، وخاصّة بعد تمكّن الإسلام في مصر وبداية زحفه نحو النوبة[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ تلك الصراعات المبكّرة بين الممالك النوبية ،

---

(١) شوقي الجمل: تاريخ سودان وادي النيل؛ حضارته وعلاقاته من أقدم العصور للوقت الحاضر: مكتبة الإنجلو المصرية- طبعة ١٩٦٩-ج١-ص:٢١٣.

وحرصهم على توسيط القبائل العربية في نزاعهم والاحتماء بهم لتقوية جانبهم كلّ ضد الآخر ، كان من أسباب تقبّل أولئك السكّان الأصليين للإسلام وعدم تجهّمه ، لأنّه حُمِل إليهم عن طريق قبائل عربية خالطوهم منذ القديم.

النصرانية الإيديولوجية:

ونعني بها حالة الولاء الاستعماري المؤسّس على خلفية دينية ، وذلك للاشتراك في الأصول المرجعية الجامعة بين الكيانات الإدارية المتبنية لحركة التنصير وما له من أُطُر محايدة للوهلة الأولى وبين القوة المستعمرة التي تحتاج منهجيا لمؤسّسات مدنية تواليها قادرة على التسويق لمشاريعها الاستيطانية. وهو ما تعبّر عنه الكتب المدرسية في البلاد المستعمِرَة وتبرّره غالبا ، دفاعا عن سياساتها الاستعمارية. التي تبرزها في إطار الاسهام في تمدّن الشعوب المتخلّفة وتوفير العلاج والماء الصالح للشراب وكذلك تشجيع حركة العلم والتنوير المعرفي. ومن أجل تحقيق كلّ ذلك لا بدّ من الوقوع في بعض الأخطاء البسيطة الراجعة إلى طبيعة تنفيذ تلك الخطط ، وأنّ الأرواح التي تفقد في تلك المسيرة هم في الغالب من أعداء حركة الإصلاح. وذلك الذي عنيناه بالإيديولوجية لقيامها على منطق الولاء والتبرير. لذلك فإن دراسة الحالة النصرانية في السودان الحديث تحفها إشكالات تاريخية ومنهجية ، عمّقت هوّة القطيعة النفسية والوطنية بينها وبين الأطراف الوطنية.

- الإشكالات التاريخية: من حيث الشبهات التي حفت بدخول النصرانية بلاد السودان ، خاصة في علاقة الإرساليات التبشيرية بالاستعمار.

- الإشكالات المنهجية: باعتبار أنّ النصرانية الحديثة لم تدخل السودان من خلال عوامل التأثر المتبادل والحوار الثقافي والتسليم الطوعي الاختياري ، بل غلب على المؤسّسات الكنسية الإيديولوجية طابع الإلزام والجبر ، خاصّة وأن حركة التنصير قد تقاسمتها إرساليات أوروبية كثيرة ، غريبة عن الواقع السوداني ، وجاهلة بطبيعة نسيجه وتركيبته ، ونوعية العلاقات التاريخية التي جمعت بين أطرافه ، خاصّة وأن المؤسّسات الكنسية الوافدة أدخلت إلى البنية

الاجتماعية السودانية التقليدية مفاهيم تربوية جديدة وأنماط للتعامل الإنساني لم تكن مألوفة ، قائمة على مبدأ الكره والعداء للمخالف أي كانت طبيعته ، مما بدأ في تشكيل الوعي المستقبلي للجنوبيين والنخب خاصّة وبنائه على أسس فكرية تشكّلت في تلك القيم والمفاهيم الغريبة.

وفي تقديرنا أنّ تلك المعطيات الأولية عمّقت الحيرة وألحّت في السؤال عن كيفية تناول هذا المبحث ، هل يتمّ على أساس عرض تفصيلي منفصل لكلّ إرسالية ، أم اعتماد الدراسة التّاريخية المتداخلة بالوقوف على المشترك بين كل هذه الإرساليات المتشابكة وإن بدت متناقضة في تعدّدها وذلك لعدّة اعتبارات منها :

- أن التشابك دليل على توحّد هذه الإرساليات في الخطوط العامة ، وذلك عامل إيجابي يساعد في معرفة أهمّ القرارات المشتركة ومدى التنسيق فيما بينها.

- استيعاب منطق تقاسم الأدوار الذي انتهجته الإدارة البريطانية التي قسّمت الجنوب إلى مناطق نفوذ بين الإرساليات ، ومعرفة مدى اعتمادها على هذه المؤسّسات في تمرير المشروع الاستعماري الجديد ، الذي يندرج ضمن مشروع أكبر تشترك فيه القوى الدولية يومها ومدى فعاليته وأهميته في حركة الهيمنة الحديثة.

- معرفة طبيعة عمل هذه المؤسّسات الكنسية ، التي جاءت تحت لافتات متنوّعة وشعارات برّاقة ، فهل مهمتها دينية إنسانية بحسب ما أبدته من نوايا مسبقة؟ ، أم أنّ إرهاصات تمطّط المد الإسلامي وسيلانه نحو أدغال الجنوب والنوافذ الإفريقية البعيدة ، هو السبب الرئيسي الذي أثار حفيظة الكنيسة والإدارة الاستعمارية معا؟ ، خاصّة وأن الغرب عامّة ينظر بعين حضارية إلى البلاد التي تجمعه بها جذور دينية وولاءات عقدية ، وينظر بعين استعمارية للبلاد التي تخالفه في ذلك ويجعلها وجهة لأطماعه ونهمه.

أمّا من حيث المستند الثقافي الحضاري ، فإنه يمكن تناول هذا المبحث من منطلقين متضادين تماماً ، وذلك تبعاً للخلفية الدينية والوطنية ، وهو ما يبرز في عديد الدراسات التي تحاول تحقيق التّاريخ الدّيني لبلاد السودان. فالأب

فانتيني[١] مثلاً في كتابه عن «تاريخ المسيحية» يعرض تاريخاً متسلسلاً لدخول النصرانية السودان ، بداية من أوّل «معمّد» إلى مختلف مراحل الممالك النصرانية ، ثم يفرد فصلاً خاصاً بالسودان الحديث ، معتبراً أنّ المرحلة الحديثة هي شكل آخر لرجوع النصرانية وتواصل تاريخي منطقي ، ولا يعرض أبداً لعلاقة هذه الإرساليات الأجنبية بالاستعمار. بينما يخالفه حسن مكي محمد أحمد[٢] ، في ذلك ويدعوه « المشروع التنصيري لبلاد السودان » ، معتبرا أن الإرساليات التبشيرية الذراع اليمنى للإدارة البريطانية وأداة طيّعة في تمرير مشروعها الاستعماري ، وهو ما يعرضه بشكل منهجي دقيق في بحثه القيّم « المشروع التنصيري لبلاد السودان » .

المشروع التنصيري : « أخطأ الأتراك واستفاد البريطانيون » :

نقصد بالخطأ التركي غياب الرؤية المستقبلية لمآلات الأفعال وسوء تقدير

---

(١) الأب: د.جيوفاني فانتيني: من مواليد إيطاليا، أتم دراسته في إيطاليا في علوم الآداب واللاهوت ثم قدم إلى السودان في ١٠/ ٧/ ١٩٤٩للعمل في خدمة الكنيسة في منصب الاستعلامات والبحث التاريخي، وقد كانت له إسهامات معتبرة في هذا الميدان، عبر دراساته المختصة وندواته المكثفة، ومشاركاته الدولية، وقد عرف بمسوحاته الأثرية، كما يعتبر كتابه سالف الذكر إضافة نوعية للمكتبة السودانية.

(٢) حسن مكي محمد أحمد: مفكر سوداني، ولد بالحصاحيصا. من طلاب مدرسة حنتوب النموذجية، نال درجة الدكتوراه من معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم. ويعتبر من نشطاء الحركة الإسلامية السودانية، قضى في المعتقل ثلاث سنوات نتيجة نشاطاته السياسية بجامعة الخرطوم. تفرّغ بعد تخرجه للدعوة الإسلامية في صفوف الحركة الإسلامية في دارفور وجنوب السودان، ثم باحثاً في المركز الأفريقي بالخرطوم والمؤسسة الإسلامية في لستر بإنجلترا، مختصّ في شؤون الحركات الإسلامية والصحوة الإسلامية والقضايا الإفريقية، خاصّة قضايا الإسلام والنصرانية وقضايا الفرن الإفريقي. صدرت له عدة دراسات منها: حركة الإخوان المسلمون في السودان: ١٩٤٤-١٩٦٩، مفاهيم في فقه الحركة، أوضاع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، أحمد بن إدريس الفاسي: فكره السياسي ومنهجه في العمل، الأرومو: دراسة تحليلية، تطور أوضاع المسلمين الإرتريين، السياسات الثقافية للصومال الكبير: ١٨٨٦-١٩٨٦.

لمجريات الأحداث ، خاصّة وأن تركيا في تلك الحقبة غلب عليها الطابع القومي العنصري ، وبدأت تتلاشى منها الروح الدينية الأصيلة ، تحت ضربات القوى الدولية وتمكّن الحركات السرية من أجهزة الدولة ، وإلاّ لما استقر المبشرون حتى حين عند العائلة التركية الحاكمة والتي خضع لسلطانها مصير السودان ، وقد قدم هؤلاء المبشرون تحت غطاء مكتشفين وفنيين عسكريين ، بقصد معرفة السودان عن قرب ، استعداداً للالتفاف عنه ضمن خطّة المشروع الاستعماري الأوروبي ، هذا إذا علمنا أن بعضهم قد جاء بإذن من حكومة الخديوي ليباشر التنصير بكل الوسائل المتاحة عبر الخدمات الصحية والاجتماعية.

يعتبر الأب مانسوري من أوائل المبشرين الذين وصلوا السودان فراراً من الحبشة سنة ١٨٤٣ مبتدئاً خطة تبشيرية كاملة بمعاونة «سبراو» ، إلا أن ظروفا قاسية أفشلت بدايات هذا المشروع ، الذي استؤنف لاحقاً تحت إشراف البابا « جريجوري السادس عشر » الذي قام بتعيين نيابة رسولية ملحقة ببعثة دينية ، عرفت بإدارة إفريقيا الوسطى. كما يعتبر الأب أنطوني كازولاني » وخبير الشؤون السودانية « دون فيتكو » والأب « كنوبلشير » ، من المبشرين الذين قامت عليهم الدعوة التبشيرية ، وارتبط بهم جزء مهم من تاريخ النصرانية الحديثة في السودان. وقد تمكّن الأب « رايلو » وهو من أكثر المتحمسين لتنصير إفريقيا من تأسيس جمعية خيرية لدعم مشروع تبشير السودان ، برئاسة أساقفة «براغ» ، بلغت عضويتها قرابة الألف شخص ، وبذلك قامت النمسا رسمياً بحماية الكاثوليكية حيث أنشأت سنة ١٨٤٨ قنصلية بالسودان ، ممّا أثار حفيظة روما وفرنسا ، لعملهما الدائم على بسط النفوذ وتقليص مراكز الظل عن باقي القوى الاستعمارية.

كما لا تخرج بعثة معهد « مازا » التبشيري الإيطالي عن الإطار السّابق ، حيث قام في سنة ١٨٥٧ بتنظيم أوّل بعثة تنصيرية للسودان مكوّنة من خمسة مبشرين من بينهم « دانيال كمبوني » الذي رفع لاحقاً شعار « إفريقيا أو الموت » متعهّداً بغرس الصليب حيثما حل. وأمام الخسائر الكبرى التي لحقت

بمعهد « مازا » على مستوى المبشّرين الذين ماتوا جماعات بالجنوب السوداني نتيجة للظروف القاسية ، وأمام قرار البابا إلغاء بعثة أفريقيا الوسطى ، توصّل كمبوني إلى فكرة ضرورة إقامة المعاهد على أرض السودان لتعليم الشباب الإفريقي ثم إرساله للدعوة وسط أهاليه. وفي سنة ١٨٦٧ بعد رجوعه مع عدد من القساوسة ركّز عمله على الخرطوم ، وخلال بضع سنوات أقام ستة مراكز تنصيرية في شمال السودان ، وشيّد كنيسة في كل من الخرطوم والأُبَيِّض ، مستعيناً في تنفيذ مشروعه باستمالة السلطات التركية وضمان الحماية الأوروبية خاصة فرنسا وإيطاليا ، وقد أثمر هذا التعاون مشروعات مشتركة بين السلطات الاستعمارية ومجموعة كمبوني ، التي كانت تقوم إلى جانب عملها التبشيري بدراسات علمية واجتماعية ، لمعرفة مكوّنات « العالم الجنوبي » .

وفي سنة ١٨٧٢ ، نُصِّب كمبوني مطراناً على السودان ، وقد تضاعفت جهوده بإقامة قرى كنسيّة لمن تم تنصيرهم من سكّان جبال النوبة ، في مناطق منعزلة بعيدة عن المؤثّرات الإسلامية ، على أساس أن تصبح هذه المستوطنات مراكز تجارية يديرها القساوسة والراهبات ، وتكون مراكز استقطاب لتنصير المسلمين [١] . وفي سنة ١٨٧٣ أعاد كمبوني فتح مدرسة إرسالية أفريقيا الوسطى بالخرطوم ، وانتدب لها سودانيين وسودانيات ممن تعلّموا في مصر وأوروبا ، وقد كان من ثمرة نشاطه المرير أن يرى أوّل تلاميذه كقسيس « دينج سرور » سليل عائلة مسلمة. إلاّ أنّ هذا النشاط التبشيري المحموم لم يمرّ بهدوء فقد قامت ثورة الإمام المهدي التي واجهته بقوّة وعملت على محاصرته ثم إنهائه ، فهرب سنة ١٨٨٣ الطلبة المتنصرين إلى القاهرة مع جملة الإرساليات التبشيرية ، ولم يتمكّن بعضهم من الرّجوع إلاّ بعد نهاية المهدية ، وكَوَّنوا النواة الأولى للكثلكة السودانية في الشمال. وتعتبر سنة ١٨٩٩ من أثرى الفترات الزمنية التي مرّت على الإرساليات الكنسية ، وذلك من وجوه:

---

(١) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان ١٨٤٣-١٩٨٦ دراسة تاريخية تحليلية عن الانتشار المسيحي ودور الإرساليات الأوروبية في تكييف السودان حضارياً وسياسياً. شعبة البحوث والنشر، إصدار رقم ١١/ ١٩٩١- المركز الإسلامي الأفريقي، الخرطوم، ص٢٤.

أ ـ استأنفت مؤسّسة كمبوني عملها بالسودان ، وقد رفض السردار « كتشنر » أن يرجع لهم مبانيهم السابقة وأعطاهم قطعة أرض على النيل حيث كاتدرائية « القديس متى » ومدرسة الراهبات الكاثوليك.

ب ـ قاد مطران الخرطوم « روفيجيو » أول دفعة من رهبان جمعية كمبوني ، ووصل أم درمان في ٤ يناير ١٩٠٠ حيث استقر في حي المسالمة « المظاهر » واستأجر منازل حوّلها إلى مسكن للرهبان ، ومدرسة للذكور ومدرسة للبنات وكنيسة لجميع النصارى من كل الطوائف. كما وصلت السودان في نفس السنة دفعة من الراهبات للعمل وسط النساء.

ج ـ أرسلت الجمعية المسيحية التبشيرية عدداً من مبشريها إلى سواكن ، وقد رصدت ثلاث آلاف جنيه إسترليني لتخليد ذكرى غردون ، مرسلة إرسالية باسمه للعمل في السودان وهي « إرسالية غردون التذكارية » ، وفي المقابل فرضت الدولة رقابة لتلطيف سلوك الجمعيات التنصيرية خوفاً من اشتعال نار الثورة استجابة لنداء « محمد بن عبد الله الحسن » بالصومال.

الإدارة الاستعمارية ومناطق النفوذ التبشيري :

نتيجة لكثافة نشاط الإرساليات الكنسية بالسودان ، وتداخل مواقع عملها وتضاعف حجم المهام المنوطة بعهدتها ، ولتضخّم مهام السلطات الاستعمارية المنشغلة بفصل الجنوب حضارياً وثقافياً ، لقطع الطريق أمام المد الإسلامي وإيجاد قطيعة حضارية بين المؤثّرات السودانية الشمالية ذات الإنتماء الإسلامي وباقي القارة الأفريقية جنوب الصحراء ذات التديّن النصراني كما ترى البعثات الكنسية ، قرّرت الإدارة البريطانية تقسيم الجنوب بين الإرساليات الكنسية على أساس مناطق نفوذ محددة لا تسمح بالتداخل بينها ، وفي شكل جدار منيع لا يسمح بتسرّب رياح الدعوة الإسلامية ، داعمة ذلك بمراكز حماية عسكرية في شكل حدود وهمية تراقب قرار منع التواصل والاختلاط بين شطري البلاد ، وكان ذلك بقرار أصدره الحاكم العام سنة ١٩٠٣ يحدّد مناط النفوذ كالتالي:

ـ الضفة الشرقية للنيل في مديرية أعالي النيل: مخصّصة لنشاط الإرسالية

الأمريكية ، وتعرف اليوم بالكنيسة الإنجيلية.

ـ الضفة الغربية للنيل في مديرية أعالي النيل: للإرسالية الكاثوليكية ولها أيضاً أغلب المراكز في مديرية بحر الغزال ، ما عدا مركز رومبيك.

ـ الضفة غرب النيل في مديرية الاستوائية للإرسالية الإنجليزية المعروفة اليوم بالكنيسة الأسقفية ، أما الضفة الشرقية لنفس المديرية لم يسر عليها القرار لأنها كانت تحت إدارة حكومة يوغندا.

ـ أمّا جميع المناطق الواقعة شمال الخط العاشر ، وهو السودان الشمالي ، فتحتفظ فيه كلّ إرسالية بموقعها السابق.

ويقضي القرار بمنع العاملين في كنيسة معينة من العمل في أرض الكنيسة الأخرى ، وبمرور الأيام وافقت السلطات المختصة على تنقل عامل كنيسة معينة لتفقد رعاياه خارج حدوده. وهو ما أشار إليه حسن مكي [1] بقوله « اختلفت سياسات الحكومة الثقافية والإدارية والسياسية تجاه جنوب السودان عن تلك المطبقة في شمال السودان ، فقد فتحت الحكومة جنوب السودان للأوروبيين والإرساليات المسيحية وقسمته إلى مناطق نفوذ ديني بين الكاثوليك والبروتستانت وحرّمته على المسلمين من شمال السودان » . ثم بذل « قويني » جهده لتوحيد نصارى السودان من خلال أداء طقس عقيدي موحّد يعقد سنوياً في كاتدرائية الخرطوم الأنجليكانية لكل الملل والطوائف الكنسية.

وقد تدرّج هذا البرنامج حتى أصبح هناك منبر موحد للكنائس أطلق عليه « مجلس الكنائس في السودان » ، مكوّن من قادة الكنائس التالية: كنيسة إنجلترا ، الكنيسة الأورثوذكسية الإغريقية ، الكنيسة القبطية الأورثوذكسية ، الكنيسة الأرمنية الأورثوذكسية ، الكنيسة السورية الأورثوذكسية ، الكنيسة المشيخية المصرية ، الكنيسة الأمريكية التبشيرية ، شعبة الكنيسة بالجيش الملكي.

ثم أنشئ جهاز موحّد تحت اسم المجلس الإرسالي المتداخل بغرض التنسيق بين حركة الإرساليات العاملة في الجنوب لإيقاف تقدّم الإسلام ، ونشر

---

(١) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان: ص٣٥.

النصرانية الأوروبية. وبذلك عزلت كل إرساليات الكنائس الشرقية من هذا المجلس ، الذي تكون فقط من: إرسالية غردون التذكارية ، الإرسالية الأمريكية التبشيرية ، إرسالية الكنيسة التبشيرية وإرسالية الجمعية التبشيرية. ولم يتردّد « قويني » في إسناد وتقوية السياسات الاستعمارية إذ اجتهد في تكريم أبطال الغزو الإنجليزي لاعتبارهم أبطالاً للكنيسة الأنجليكانية والنصرانية الأوروبية ، فشيّد عام ١٩٣٠ برجاً وأجراساً في كاتدرائية الخرطوم « للجنرال كتشنر » و « السيرلي استاك » ، وقد خاطب الاحتفال حاكم السودان الذي اشترك مع « مكمايكل » في صياغة سياسة الجنوب ، قائلاً « وهنا ومن خلال السلام الذي يغمر هذه الكنيسة ، نحس كما نحسّ داخل الكنيسة التي نحبها حبنا لديارنا بالروح الطيبة للهدف المشترك ، إنّنا مدينون للذين شقّوا لنا هذا الطريق كما أننا نزف أشواقنا للذين لم يأتوا بعد ، ولكن سيواصلون التعبّد هنا كما فعل أسلافهم »[١] .

وممّا يؤكّد الارتباط الوثيق بين الإدارة الاستعمارية والإرساليات الأجنبية ، تأثّرها بأزمة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، ممّا ترتّب عنه أمران: أوّلا انقطاع الإمدادات المالية من أوروبا ، وثانيا لّما كان أغلب القساوسة من الألمان ، فقد أمرت السلطات البريطانية بجمعهم في مكان واحد. وبعد الحرب مباشرة انتعش العمل من جديد ، ووصلت إرساليات إيطالية جديدة بتشجيع رسمي من الحكومة ، ثم تعثّر ثانية لنشوب الحرب ١٩٤٠-١٩٤٥ بين بريطانيا وإيطاليا[٢] .

وقد تبدو دراسة « فانتيني » التأريخية موضوعية ، أما التي لها علاقة بالصراع الاستعماري ، فيبررها في شكل تحدي يواجه الكنيسة خلال مسيرتها الدينية ، وفي الحقيقة هي دلالة واضحة على عمق الارتباط بين الاستعمار والإرساليات الأجنبية.

البعثات الكنسية بالسودان:

تكاثرت البعثات الكنسية وتقاسمت الأدوار ، من خلال تحديد أماكن النفوذ

---

(١) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان: ص٢٩.

(٢) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان: ص٢٥ وما بعدها.

ومواطن العمل الميداني ، وقد حقّقت بذلك نتائج متفاوتة الأهمية خاصّة على المستوى التعليمي الثقافي. ويمكن رصد آثارها على النحو التالي:

الكنيسة الأسقفية:

تعود البدايات الأولى لتأسيس كنيسة بروتستانتية بالسودان إلى ١٨٩٩ على يد المطران «قويني» الذي وضع سنة ١٩٠٤ حجر الأساس للكنيسة الأسقفية قرب القصر الجمهور ، وفي ١٩٠٥ بدأ ثلاثة قساوسة العمل بالجنوب ، حيث أسسوا مركزاً في «واد ألمان» جنوب منقلا ، ثم تحوّل المركز إلى «مالك» وقد عمل «شو» وهو أحد الثلاثة على نقل الكتاب المقدس إلى لغة الدنكا بور ، وألف معجماً وكتاب قواعد.

أخذ العمل منعرجاً جديدا وأكثر تخطيطاً بقدوم الدكتور «كليف» وزوجته في ١٩١٢ حيث عملا في «يامبيو» في قبيلة الزاندي ، وقد ألّفا معجماً من اللغة الإنجليزية إلى الزاندي ، ونقلا إليها الكتاب المقدس ، كما استقر الرّاعي «بول جيبسون» سنة ١٩١٧ في «ياي» حيث نقل الكتاب المقدس إلى لهجة «الكاكوا» ثم فتحت مراكز في «كاجو كاجي» و «جوبا» و «روكون» ، كما استقر الدكتور «كنيث فريزر» وزوجته في «لوي» حيث فتحا كنيسة ومستشفى صغيراً وجملة مستوصفات بالقرى المجاورة يراقبها دورياً مستعيناً بسيارته الوحيدة في تلك الأحراش ، ثم افتتح مركزاً لتأهيل المعلّمين ومدرسة لاهوت ومدرسة صناعية.

وفي سنة ١٩٣٢ افتتحت مركزاً آخر في «لير» وسط قبيلة النوير ، تزامن مع افتتاح كنيسة صغيرة في بورتسودان. وأمام فشل الكنيسة الكاثوليكية في العمل بجبال النوبة ، تولّت الكنيسة الأسقفية العمل هناك سنة ١٩٣٤ ، ففتحت مراكز بها مدارس في مناطق «سلارة» ، «كادوقلي» ، «أيري» ، «هيبان» ، «كاتشا» ، «كاودا» ، «مورو» ، «تالودي» و "تبانيا» ، وفي سنة ١٩٣٦ فتحت مركزاً آخر في جزيرة «زيراف» سُلّم بعد ذلك للكنيسة المشيخية ، كما فتحت في «ملكال» كنيسة متحدة لتخدم الكنيسة الأسقفية والإرسالية الأمريكية.

وقد تداخل عمل هذه الكنيسة مع الكنيسة الإنجليكانية التي بدأت نشاطها سنة ١٩٢٩ في «بحر الغزال» بتأسيس مركز لها في «أكوت» و « جيل» وفي

«يانيكار» لدى قبيلة الزاندي ، ثم بنت كنيسة في «تونج» ، في حين كانت إرسالية داخل إفريقيا (وهي فرع من الكنيسية الأنجليكانية) تعمل على ضفّة النيل الشرقية ، و «توريت» ، و "أوفاري» و "كابويتا» ، ثم هجرت بعض هذه المناطق أثناء الحرب العالمية الثانية [١]. إلا أنّ مردود هذه الإرساليات كان ضعيفاً جداً برغم خضوعها مباشرة لإشراف المبشر «جون بويسي» الذي قضى خمسين سنة في كينيا ، إذ بعد ربع قرن كان حصادها أربع مراكز تبشيرية ومئتين وخمسين عضواً [٢].

لم يكن للكنيسة الأسقفية طابعاً محلياً خاصاً يميّزها من حيث سياساتها وبرامج عملها ، يراعي الإنتماء الديني المحلي والبعد الوطني ، وإنما ترتبط رأسا بالكنيسة الأم في بريطانية. وقد أنشئت إرساليات مختلفة؛ كجمعية تبشير الكنيسة البريطانية لأفريقيا والعرب ، وهي من أقوى الإرساليات التي تلعب دوراً مقدراً في توجيه السياسة البريطانية بالسودان ، ومن أشهر روادها «ج. اسبنسر ترمنجهام» الذي أصبح أسقفاً للكنيسة الأسقفية الإنجليزية ثم خلفه القس «الفرالسن» ، وتعتبر هذه الكنيسة من أكثر الجمعيات البروتستانتية تنظيماً ونشاطاً ، لارتباطها بكنيسة الدولة في بريطانيا ، كما حظيت برعاية الأسرة المالكة ورؤساء أساقفة كنيسة كنتربري الرئيسية.

وتتمثّل استراتيجية هذه الكنيسة في التسابق نحو السيطرة على مجالات التعليم والصحة للتغلغل وسط السكان المحليين ، معتمدة في اتّصالها المباشرة على قسّيسين سودانيين جنوبيين ، ارتدّ معظمهم عن الإسلام ، وقد خالفت أهم مبادئها بتشجيع المبشرين الأفارقة على الزواج لتأسيس أسر نصرانية. وأما في العاصمة القومية فقد اهتمت بالنازحين الجنوبيين فأسّست لهم نوادي بالخرطوم وأم درمان ، ومراكز اجتماعية وأخرى تبشيرية خاصة بالدعوة وتوزيع المنشورات ، وقد استفادت كثيراً من المؤسّسات البريطانية الموجودة بالعاصمة كالمركز الثقافي البريطاني.

---

(١) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان

(٢) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان: ص٦٤.

الكنيسة الإنجيلية:

لّما قام الحكم الثنائي بالسودان احتاجت الدّولة لموظفين يسهرون على تنفيذ سياساتها والتقيّد بأوامرها ، لذلك استعانت بموظفين مصريين وسوريين ، كان أغلبهم نصارى من أتباع المذهب الإنجيلي ، فكان ذلك مدخلا للكنيسة باسم حق رعاية حاجتهم الدينية ، فأوفد المجلس المشيخي للإرساليات الأجنبية اثنين من رجاله هما «جون كلي جفن» و"مكلو فلن» ، رفعا تقريراً عن إمكانية العمل بالسودان ، وكان معهما مندوبان عن جمعية الكتاب المقدس البريطانية ، وقد وجهتهم الحكومة للعمل في الجنوب بين القبائل الوثنية. وفي سنة ١٩٠٣ فتحت أوّل مدرسة على شاطئ السوباط وسميت هذه الربوة «بتلّ الدليب» وكان ذلك على يد «جون كلي جفن» و"مكلو فلن» ، وزوجتيهما ، وبعد سنة انضم إليهم «كارسن» وزوجته ، وفي سنة ١٩١١ عين المجلس المشيخي للإرساليات الأجنبية «ماكربري» لبدء العمل في «الناصر» في قبيلة النوير. وبعد الحرب العالمية الثانية التحق مجلس الكنائس الهولندية المتجددة في أمريكا الشمالية لمعاونة الإرساليات الأمريكية وفتح مركز في «أبوونق» و «أكوبو» و«البياجور» ، وقد أوكلت مهمة بدء العمل بين الأنواك وفتح مركز «أكوبو» «لدونالد مكلور»[١].

أما عن نشاطها بالشمال وخاصة بالعاصمة فقد بدأ فعلياً بوصول «سورلين» في ١٩٠٣ ، حيث اشترى دار الكنيسة الإنجيلية الواقعة شرق مستشفى أم درمان الحكومي ، فبنيت فيه أوّل مدرسة للبنين عام ١٩٠٧ ، وقد كان «جفن» اشترى في ١٩٠٥ المربع الذي يقع على شارع القصر غرب سينما كلوزيوم ، افتتح فيه مدرسة عام ١٩١١ ، كما أرست الإرسالية الأمريكية مدرسة Kelly-j-Kelly الزراعية بالجريف غرب ، ثم أغلقتها في ١٩٧٣ ، وقد كان لهذه الكنيسة نشاط سياسي ، وتعتبر طرفاً في أحداث الأحد ، لذلك أحرق المواطنون مكتبها [٢].

---

(١) انظر فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث.

(٢) حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان، ص١٤٩.

الكنيسة الأرثوذكسية:

تعود بداياتها إلى أيام «محمد علي» حيث أرسل البطريرك «بطرس الجاولي» عددا من القساوسة إلى الخرطوم والأبيّض وبعض مراكز في الشمال. وفي مطلع القرن العشرين أصبح البطريق «كيركسي الخامس» بابا الإسكندرية رئيساً للأقباط الأرثوذكس ، فقام بتأسيس كاتدرائية السيدة العذراء بالخرطوم ، تلتها كنائس أخرى في الخرطوم بحري وأم درمان وواد مدني والقضارف والأُبيض وكادوقلي ، ثم افتتحت الكنيسة جملة مدارس للبنين والبنات ، تولّت وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٥٨ مهمة الإشراف عليها بموجب اتفاقية مع سلطات الكنيسة.

ظلت الكنيسة القبطية بالسودان كنيسة رعاية فقط ، إلا أنه مع زيارة البابا شنودة الأولى للسودان غيرت من سياساتها ، منتقلة من طور الرعاية إلى طور التبشير ، وذلك عن طريق توزيع الكتيبات والمنشورات ، وبناء كيان ديني اجتماعي عبر التمركز في أماكن هامة. فكان أولها تخطيطاً المبادرة بالسيطرة على أكثر عدد ممكن من قطع أراضي المسالمة ، إلى حدّ إغراء بعض المسلمين ببيع منازلهم أو أراضيهم مقابل أسعار خيالية ، مقارنة بتلك الفترة التاريخية.

الكنيسة الكاثوليكية:

لا تخرج مسيرة تأسيس الكنيسة الكاثوليكية في إطارها العام عن سياسة توزيع المهام وتقسيم مراكز النفوذ كما سبق. فهي جزء من الحالة التاريخية التي طبعت النصرانية بالسودان الحديث أو المشروع التنصيري الاستعماري. فإضافة إلى محاولة الانتشار في الشمال عملت الكنيسة على مد جذورها جنوبا ، فأقامت عدة كنائس ومؤسسات تعليمية وصحية وتبشيرية في «غندوكرو» حيث قبيلة باريا ، وفي «مزقان» حيث قبيلة كيتش فرع من الدنكا ، وقد دُعي هذا المركز باسم «إرسالية الصليب المقدس" . كما قامت بدراسة العادات واللهجات المحلية وكتبت بها كتب الدين وبعض فقرات من الإنجيل ، وفي سنة ١٨٥٣ جمعت

مفردات وقواعد لغات «الكيتش» و «الباريا» و «المورو» ، وبعثت طالبين إلى مدارس اللاهوت بأوروبا للتعمق في مبادئ النصرانية.

وتعتبر الكنيسة الكاثوليكية من أكثر الكنائس تنظيماً ، فهي تحتوي على مجلس كهنوتي ومجلس إداري مدني ومؤتمر سنوي لأساقفتها. ومن أهم أجنحتها: وكالة العون السوداني: Sudan Aid ومنظمة خدمات الإغاثة الكاثوليكية. وتنجز مهامها عبر ثلاثة مداخل رئيسية: المؤسسات التعليمية الكاثوليكية ، ودور العبادة ، والمؤسسات الصحية والتجارية.

مجلس الكنائس العالمي:

يعتبر هيئة تنظيمية تجمع كل الكنائس بمختلف اتجاهاتها العقدية في شكل تجمّع ديني ، يقوي سلطة الكنيسة الدولية في التفاوض والتنسيق وتبادل المعلومات. وتتحدّد أهم مناشطه في مساعدة اللاجئين والتنصير ، وإعداد الدراسات والبحوث الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، ودعم كثير من حركات التحرّر المناهضة وخاصّة الانفصاليين بجنوب السودان ، كما لعب دوراً في مشاريع الاستيطان واستقبال اللاجئين من دول الجوار ، وله كذلك تنسيق كبير مع مجلس الكنائس الأفريقية ومجلس الكنائس السوداني. وتعتبر مواقفه مناهضة للقضية العربية عموماً ، وخاصّة في مكافحة تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان ، وتحريك العالم المسيحي في اتجاه محاصرته.

جمعية الكتاب المقدس:

أنشئت هذه الجمعية بالسودان عام ١٩٦٦ كفرع للرئاسة الموجودة بمصر ، والمسجلة باسم «Bxitish and foxeign Bible society» والغرض منها بيع الكتب المقدّسة ، وكتب الثقافة النصرانية خاصة في البلاد الإسلامية. وفي ١٩٢٣ ظهرت جمعية «الكتاب المقدس الأمريكي» كمنافس لها. ولتجاوز الإشكال وتقوية للجهود اندمجت الجمعيتان سنة ١٩٤٧ تحت اسم «جمعيتي التوراة البريطانية الأمريكية» ، وفي سنة ١٩٦٢ غير الاسم لحساسيته ليصبح «جمعية الكتاب المقدس» ، وفي إطاره يقع استدعاء القساوسة الأجانب للعمل على أساس أنهم مترجمين ولغويين وناشرين.

خلاصة المبحث:

لا يعتبر عرضنا السّابق للمؤسّسات والإرساليات التبشيرية عملاً إحصائياً نهائياً ، وإنما هو جزء من الكم الهائل لمختلف هذه الإرساليات والهيئات المركزية والفرعية ، التي امتدت كالأخطبوط في الجسد السوداني ، وليست بأكثر أهمية من باقي المؤسسات المعروفة ، كإرسالية السودان المتحدة وإرسالية السودان الداخلية ومجلس إرساليات الجنوب ، إذ لكل منهم دوره الخاص في إطار التوجه العام. ويعتبر حسن مكي محمد أحمد أدق من تناول هذا الموضوع إحصائياً ، ووقف عند خلفيته ومآلاته[1].

وقد حرصنا في خلال بحثنا على الوصول إلى المعلومة في مصادرها الأصلية ضمانا للحيادية والشفافية. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال هو صعوبة التعامل مع المؤسّسات والهيئات النصرانية. فقد لاحظنا تكتّما عن المعلومات وتوجّسا من الآخر ، ممّا يتنافى وطبيعة العلاقة بين هذه المؤسّسات والجهات البحثية ، والتي من المفترض أن تجد كلّ العون والمساعدة تسهيلا لمهامها. فكان ذلك من معوّقات الحصول معلومات دقيقة خاصّة الإحصائيات الحديثة. ولربّما فوّت ذلك فرصة الاستفادة على الكثير من المنشغلين بالشأن السوداني ، فارتبط هذا البحث في جزء كبير منه بالمصادر القديمة نسبياً أو التقدير الشخصي عبر التنقّل الميداني المقيّد بكثير من الأسباب الذاتية والموضوعية.

---

(١) للتوسع انظر:

- حسن مكي محمد أحمد: المشروع التنصيري في السودان.
- فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث.
- عبد الجليل ريفا: التبشير في إفريقيا: المطبعة العسكرية- الخرطوم- الطبعة الأولى ١٩٨٣.
- سيد أحمد يحي: التنصير في القرن الأفريقي ومقاومته: دار العمير للثقافة والنشر- جدة- الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- أحمد عبد الوهاب: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر: مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٨١.

التعليم الكنسي: العزل الثقافي والفتنة الدينية:

تَعتبر الحكومة الاستعمارية التعليم مسألة ثانوية ، مقارنة بمهامها على الأرض؛ السيطرة العسكرية ونهب الثروات. وقد أنشأت كلية غردون التذكارية بهدف تخريج بعض الموظفين لإلحاقهم بدواوين الدولة ، وفي المقابل هدفت سياستها في الجنوب لاستتباب الأمن وفرض سلطة الدولة ، والمحافظة على بقاء الطرق مفتوحة وبيع المنتجات المحلية كالحبوب وسن الفيل ، إلى جانب بناء بيوت الضيافة ، وإيجاد العدد الكافي من اليد العاملة الجنوبية للقيام بالوظائف المطلوبة: حمّالين.. ، أما الخدمات التعليمية والصحية فقد تركت للمؤسّسات والإرساليات التبشيرية ، التي قُسِّم بينها السودان على أساس مناطق نفوذ.

سعت الأطراف النصرانية المتنافسة إلى فتح مدارس خاصة بها ، يضع برامجها نظّار المدارس ، الذين هم عادة من ذوي المراتب الدينية المعتبرة ، مثل الأب «كوتالد» والأب «أفل كوفر". وتتمحور البرامج غالبا حول تهميش اللغة العربية والحضور الشمالي في جميع مظاهره ، وتدريس اللغة الإنجليزية ، وبعض المواد الأكاديمية والحرفية ، في حين سخرت كل قدراتها في العمل التبشيري والتسابق نحو تعميد أبناء الجنوب ، الذين لم يُرد لهم تجاوز إطارهم الجغرافي لِتلقي المعارف وتَشرّب مختلف أفرع العلوم ، بل اختزلتهم الكنيسة في الإطار القبلي؛ بتطوير اللغات المحلية وتطويعها لتصبح لغة معرفة وتدريس ، ممّا ولّد فواصل ملحوظة ليس فقط بين الطالب الجنوبي ونظيره الشمالي بل بين الجنوبيين أنفسهم ، والذي انعكس لاحقا سلبيا عند الجلوس إلى امتحان الشهادة السودانية.

يمكننا منهجيا تقسيم جملة المراحل التي مرّ بها التعليم في جنوب السودان إلى ثلاث فترات[1] تراعى فيها الظروف التي مرت بها إدارة المدارس في تلك المناطق:

ـ الفترة الأولى ١٩٠١-١٩٢٦: سبق وأن أشرنا إلى عدم اهتمام الحكومة بالجانب التعليمي ، وقد اتّفق ذلك مع رغبات الكنائس في فتح مؤسّسات

(١) انظر: فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث.

تبشيرية هناك ، مما شجّع رجال الكنيسة على استغلال ذلك الامتياز وحسن توظيفه في تمكين عملهم تحت غطاء الخدمات التعليمية والاجتماعية والطبية. وقد برزت في تلك الفترة الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الأسقفية ، والكنيسة الإنجيلية ، ثم انضمت إليها إرسالية السودان الداخلية في جبال النوبة ، وإرسالية السودان الموحدة في الضفة الشرقية الاستوائية. ويعتبر الجدول التالي من أهم المحطات التاريخية في عمل هذه الإرساليات:

المؤسّسة	السنة	الانجاز
الكنيسة الكاثوليكية	١٩٠١	أسّست مدرسة بأعالي النيل في قرية «لول» و «دتووك»
	١٩٠٥	أسّست مدرسة ببحر الغزال
	١٩١٣	أسّست مدرسة بالاستوائية
الكنيسة الإنجيلية	١٩٠٣	أسست أول مدرسة في «دوليب هل»
إرسالية السودان الموحّدة	١٩١٣	أسّست مدرسة في قرية «روم» و«بلوتيش»
الكنيسة الأسقفية	١٩٠٥	أسست مدرسة في قرية «مالك» قرب الإستوائية
	١٩١٧	فتحت مراكز أخرى «بياي»
	١٩٢٠	فتحت مراكز في «جوبا"
	١٩٢١	فتحت مراكز في «مريدي» و «يامبيو»
	١٩٢٤	فتحت مراكز في «لوي»

ـ الفترة الثانية ١٩٢٦-١٩٤٨: لا يعني عدم اهتمام الحكومة الاستعمارية بالتعليم في المرحلة السابقة ، أنها ستتدارك ذلك في المرحلة القادمة بوضع سياسات تعليمية واضحة وهادفة ، بل إنّ ما أقدم عليه السكرتير الإداري «ماكميل» في سنة ١٩٢٦ ، إنّما هو مجرد تصور عام لمشروع إرساء أسس التعليم

بمستعمرة السودان ، ضمّنه توصيات خاصة بالجنوب تبنّى فيها تقرير مدير المعارف لسنة ١٩٢٦ ، وكان يهدف بذلك إلى بناء مناطق ثقافية اعتماداً على اللغات وأخلاق القبائل. وأورد التقرير مقترحات منها:

- إنشاء مدرسة حكومية في «واو» وثيقة الصلة بمدرسة البعثة الإيطالية ، وتقوم بتعليم التلاميذ الذين سيدخلون الوظائف الحكومية بما يعادل مستوى السنة الثانية في كلية غردون.

- تقديم المساعدات المالية للمدرسة التابعة لجمعية التبشير المسيحية في «جوبا» التي يصل مستواها إلى مستوى المدرسة السابقة.

- تقديم المساعدات المالية إلى عشر مدارس متوسّطة تابعة للقطاع الإيطالي ، وإلى سبع مدارس تابعة لجمعية التبشير المسيحي وإلى خمس مدارس تابعة للقطاع الحر.

- تقديم المساعدات المالية في مجال التدريب المهني والنّشر[1].

وقد بنيت خلفية هذه السياسة على جوهر التقرير الذي وضعه البروفسور «سلجمان» والبروفسور «صمويل هلسون» ، بعد رجوعهما من رحلة تفتيش بالجنوب ، حيث اعتقدا أنّ خير تربية لتلاميذ الجنوب التي تقوم على تطوير أهم اللغات المحلية. فتمّ اختيار لغة «البارية» ، و«اللاتوكة» ، و«الزاندي» ، و«الدنكا» ، و«النوير» ، و«الشلك» ، وأوصيا بأن تعطى مدارس الكنائس بالجنوب دعماً مالياً لإخضاعها للمراقبة الحكومية ، وبناء عليه أسّس منصب جديد بالجنوب ، هو منصب «نائب مدير مصلحة المعارف». وقد اشترطت الحكومة ثلاث شروط لتقديم الدعم :

ـ أن يفتّش نائب مدير المعارف المدرسة ويرضى عنها.

ـ أن تطبّق المدرسة المنهج المحدد.

---

(١) ناصر السيد: تاريخ السياسة والتعليم في السودان: مطبعة جامعة الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الطبعة الثانية ١٩٩٠-ص٤٩.

- أن يكون ناظر المدرسة الذي يشرف عليها دائماً أحد الأجانب.

وفي سنة ١٩٢٨ اعتبرت ثلاث مدارس تابعة للكنيسة الكاثوليكية مؤهّلة لقبول إعانة الدولة ، في حين تمتّعت بها كل مدارس الكنيسة الأسقفية ، وهو ما يفسّر احتراز الحكومة من البعثات الإيطالية ، خاصّة تلك المهتمة بالعمل التبشيري والتعليمي بالجنوب ، إذ اعتبرت أمراً بالغ الأهمية في نظر الحكومة ، خاصة وأن عدد مؤسساتها يتجاوز خمسة أضعاف الإرساليات البريطانية والبروتستانتية ، كما كان عدد رهبانها والعاملين بها مساوياً تقريباً للإرساليات الأخرى جميعها [١] وقد أوصى المؤتمر الذي عقد في ١٩ أبريل ١٩٢٧:

- بتحرير تلك اللغات المختارة ، كلغات صالحة لنشر الكتب والثقافة.

- أن يتعاون رجال الكنيسة مع العلماء لإخراج كتب قواعد اللغات وقصص مختارة للقراءة ، على أن تكتب هذه اللغات وكذلك العربية بالحروف اللاتينية.

- أن يرسل المتفوقون بهذه المدارس إلى كلية «ماكريري» بيوغندا ، لمواصلة التعليم العالي ، ويعمل الباقون في قراهم أو في بعض المصالح الحكومية إن توفرت فرص العمل[٢].

- تحريم التخاطب باللغة العربية في الجنوب ، ومنع إطلاق الأسماء العربية ، وإكراه أصحاب الأسماء العربية على تغييرها بأخرى محلية أو إفرنجية ، ومن عجز عن ذلك يعطى رقماً حسابياً في انتظار تغيير اسمه.

- إبعاد التجّار العرب من الجنوب ، وإقصاء المهاجرين المسلمين إلى الشمال.

- إقامة أراضي خالية من السكان كفاصل بين القبائل العربية والإفريقية.

- القضاء على الإسلام في منطقة «بحر الغزال» وإبعاد النفوذ الإسلامي ،

---

(١) محمد عمر بشير: تطوّر التعليم في السودان (١٨٩٨-١٩٥٧) ترجمة: هنري رياض وآخرون- دار الجيل- بيروت- مكتبة خليفة عطية - الخرطوم- الطبعة الثانية ١٩٨٣- ص٢٣٤.

(٢) فانتيني: مصدر سابق: ص٢٧٨.

وطرد المسلمين من مناطقهم في «راجا» و"كافياكنجي» ، وتحويل طريق الحج إلى «دارفور» ، حتى لا يمر «ببحر الغزال» ، ثمّ أحرقت قرية «كافياكنجي» لإجبار المسلمين على الهجرة منها[١].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد ، أنّ هذه السياسة جاءت في أعقاب فشل قانون المناطق المقفولة الذي صدر في عام ١٩٢٥ بعد عام واحد من ثورة ١٩٢٤ التي قادها علي عبد اللطيف ، كما جاءت سياسة الجنوب جزئياً تنفيذاً لقرارات مؤتمر الرجاف اللغوي العالمي عام ١٩٢٨[٢].

ـ الفترة الثالثة ١٩٤٨ وما بعدها: تعتبر هذه الفترة امتدادا للمرحلتين السابقتين ، وما قدم فيها من معلومات إحصائية لمجموعة الطلاب المباشرين للدراسة. فقد بلغ عدد الطلبة في سنة ١٩٤٨ بالمدارس الأولية ٦٦٠٠ طالب ، وبالمدارس الوسطى ٥٤٩ طالب ، وبمدارس الغابات ١١٥٠٠ طالب ، وفي سنة ١٩٥٧ بلغ عدد المدارس الكنسية ٣٥٠ مدرسة تضم ٣٥٠٠٠ طالب وطالبة [٣] . إلاّ أنّ المعطيات شهدت تغيرا نسبيا مع بداية إرهاصات اليقظة السياسية في الثلاثينات. فقد بدأت الحركة الوطنية تعبّر عن نفسها في مختلف القطاعات ، وفي أكثر من مؤسّسة وتنظيم ، وأعتبر قيام مؤتمر الخريجين إضافة نوعية في خوض معركة الانتصار للهوية وتحقيق الاستقلال ، إذ اهتم منذ تأسيسه سنة ١٩٣٩ بأمر الجنوب ، فبادر سنة ١٩٤٤ برفع مذكرة للحكومة مطالباً بالآتي:

- رفع قيود التجارة والتنقل.
- إلغاء الإعانات للإرساليات.

---

(١) حسن مكي: المشروع التنصيري في السودان، ص ٦٩.

(٢) حسن مكي: السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، شعبة البحوث والنشر، معامل التصوير الملون السودانية (بدون تاريخ)، ص١٩.

(٣) فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، ص٣٧٩.

- توحيد البرامج التعليمية في كل البلاد.

وقد دعّمت هذه المبادرات مجهودات رسمية على مستوى الإدارة المركزية:

١ـ تبني عبد الرحمن طه[١] سياسة توحيد التعليم بكامل القطر ، وجعل اللّغة العربية مادة دراسية في كل مدارس الجنوب خلال عامين ، مواصلاً سياسة دعم المدارس التبشيرية ، وقد قامت سياسة توحيد التعليم عنده على:

- مناهج تدريب المعلمين موحدة.

- كتب منهجية موحدة.

- تقديم العربية كمادة دراسية أولاً ثم لغة تدريس ثانية.

- منهج دراسي موحد.

- إنشاء مجمع تعليمي تحت إشراف الحكومة بمنطقة «مريدي» ، يضم مراكز تدريب المعلمين ، ومدارس أولية ووسطى ، تبعاً لمنهج بخت الرضا.

- إرسال طلاّب أعالي النيل إلى معهد «الدلنج» للتدريب كمعلّمين.

- تحسين وضع اللغة العربية بمدرسة «خور عطار» الوسطى حتى تقوم بتزويد معهد «الدلنج» بالطلاب المؤهلين.

- تدريب معلمي المرحلة الوسطى الجنوبيين ببخت الرضا على أن يؤخذ الطلاب أساسا من مدرسة رومبيك.

- مضاعفة مدارس التعليم المتوسطة ، والتوسّع في التعليم الأولي وإنشاء التعليم العالي ، بحيث تساوى مدارس الحكومة مع مدارس الكنائس. إلا أن ذلك لم يحصل لتمتّع الإرساليات التبشيرية بدعم مالي يفوق إمكانيات الدولة ، إلى جانب أقدميتها في المشروع التعليمي وخبرتها بالجنوب لأكثر من نصف قرن ، فكانت الإحصائيات لحدود سنة ١٩٥٠م كالتالي:

---

(١) وزير تعليم سوداني سابق.

إحصائيات بحسب السنوات المحدّدة أدناه	مدارس تبشيرية	مدارس حكومية
المدارس الموجودة حتى سنة ١٩٥٠	٤٥	٦
المدارس المراد بلوغها في سنة ١٩٥٦	٥٦	٣٢
ما تم إنجازه	٦٦	٢٢

هذا بالإضافة إلى المدارس الصغرى التي يديرها المبشرون والتي كانت تستوعب ١٨ ألف طالب منهم ٧ ألف طالبة ، كما يوضح الجدول التالي عدد التلاميذ في كلتا المدرستين وتفسير ذلك:

نوع المدرسة	عدد طلبة المدارس التبشيرية	عدد طلبة المدارس الحكومية	الجملة
مدرسة قرية	١٧٧٢١	١٩٤	١٧٩١٥
مدرسة أولية للأولاد	٨٠٩٦	٢٨٥١	١٠٩٤٧
مدرسة للبنات	٣٠٢٦	٧٣١	٣٧٥٧
مدارس فنية تجارية	٢٥٣	١٦٠	٤١٣
مدارس تدريب على اللهجات المحلية	٤٢٣	٨٢	٥٠٥
مدارس تدريب معلمي أولية	١١٠	٩	١١٩
مدارس أولية	٣٨٨	٦٦٩	١٠٥٧ [1]

إن فوارق الأرقام السابقة بقدر ما هي مستغربة بقدر ما يمكن أن نجد لها جملة تفسيرات أو مبرّرات إذا أخذ في الاعتبار مجريات الواقع يومها ، ومنها:

ـ تمتّع المدارس التبشيرية بالدعم المالي الكبير.

(١) انظر حسن مكي: السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان، ص٢٢/ ٢٣.

- توفّر الإطار البشري المؤهل ، والقادر على تطبيق البرامج الدراسية.
- تمتّع هذه المدارس بحماية الدولة.
- توفير المدرسة للأدوات المدرسية ، والوسائل التربويّة.
- توفير المدرسة لوجبات غذائية للطلاّب.
- وجود داخليات في بعض المدارس.

أما عن المدارس الحكومية فهي:

- ذات إمكانيات مادية متواضعة.
- ضعف الخبرة وقلّة الإطار التعليمي.
- المحاصرة والعرقلة التي تمارسها الإدارة البريطانية.
- انعدام الحوافز وضعف الدخل المالي ، في مقابل عجز المعلّم عن توفير حاجياته الضرورية.

٢- قام ميرغني حمزة[١] بجملة مجهودات مواصلة لسياسة سابقة في إطار تجذير اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالجنوب ، وسحب البساط من تحت البعثات التبشيرية ، وذلك:

- بإلغاء إشراف الكنائس على إدارة معاهد تدريب المعلّمين في «مندري» و«ميري» ، وحوّلها لمدارس إبتدائية.

- استقدام خليل محمود عساكر (خبير لغوي مصري) لتعريب التعليم بالمدارس الجنوبية ولكتابة لغات الجنوب بالحرف العربي ، ممّا أثار غضب الإرساليّات التي ظنّت أن كتابة اللغات الجنوبية بالحرف العربي هو عزل للتلميذ عن المادة الدينية النصرانية المكتوبة بالحرف اللاتيني. فبادرت الإرسالية الأمريكية بأعالي النيل باستدعاء خبراء لغويين لمواكبة هذه الحركة ، وقد قضت لجنة دولية مكونة من أربعة إنجليز ومصريين وهندي ، أستعين بهما في نفس

(١) وزير تعليم سوداني سابق.

الغرض ، بأنّ التعليم التبشيري لا يراعي حاجات الجنوب وأوصت بالسودنة والتعريب ، وأن تضع الحكومة يدها على كل مدارس الجنوب ، ونشر اللغة العربية في المؤسسات التعليمية.

٣ـ دعم الشيخ علي عبد الرحمن [١] هذه السياسات وذلك:

- بمنع الإرساليات من التوسع في المجال التعليمي.
- حوّل بعض مدارس القرى إلى مدارس صغرى.

٤ـ قام زياد أرباب [٢] بضم مدارس الكنائس والإرساليات باستثناء مدارس البنات لوزارة المعارف السودانية ، وقدّم بعض التنازلات للكنيسة الكاثوليكية لرفضها تسليم المباني والأدوات لاعتبارها مِلك الفاتيكان حسب ادعاءهم.

وفعليا لم تبدأ حركة إدخال اللّغة العربية والتعليم الإسلامي في الجنوب إلا في عهد حكومة عبد الله خليل ، الذي وعد بالعمل على نشر التعليم الديني ووضعه تحت إشراف الشؤون الدينية. وقد بدأت الحكومة بإنشاء مدارس تكميلية تأخذ من طلاّب مدارس القرى وتعدّهم للإبتدائيات حسب منهج يركّز على اللّغة العربية والتربية الإسلامية. كما اجتهد علي بلدو [٣] في بناء المساجد والمعاهد الدينية التي غطت أهم مدن الجنوب ، وإقامة خلاوى تحفيظ القرآن الكريم ، بلغت حوالي ٨٢ خلوة. وقد إنتشرت الخلاوى سنة ١٩٦١ مثلا على النحو التالي :

المركز	العدد	الموقع
جوبا	٩	٢ أطلع برة ، ٣ ملكية ، بئر منقلا ، جميز ، رجاف ، ركت

(١) داعية إسلامي سوداني.

(٢) وزير تعليم سوداني سابق.

(٣) وزير تعليم سوداني سابق.

توريت	٥	توريت كنري ، أوباري ، نمولي ، لاقون ، أكتوس
يامبيو	٢	يامبيو ، انزارا
مريدي	٧	٢ أبا ، على مرا رامي ، كمندر ، لوي ، جاميا ، فرشه
ياي	٩	٢ ياي ، ٢ لوكا ، تمبيلي ، ٣ كاجوكاجي ، ليو
كبويتا	١	كبويتا [١]

خلاصة:

يمكن اختزال الفكرة العامّة التي تدور حولها المقرّرات الدراسية بالمؤسّسات التعليمية الكنسية الجنوبية في فكرتين اثنتين هما:

ـ أنّ الشماليين يتحمّلون مسؤولية تخلف الجنوب واستنزافه اقتصاديا وبشريا.

ـ أنّ الشماليين تجّار رقيق ، نكّلوا بالجنوبيين واستغلوهم في الأعمال المهينة.

وذلك مخالف لما عليه تفاصيل التاريخ المتعلّق بحيثيات تجارة الرّقيق ، أو ما عرف بالتجارة المثلّثة. أمّا على مستوى التعليم فقد وجدت صلة عضوية بين المشكلة التعليمية والكنيسة بمختلف نحلها ، إذ باحتكارها التعليم لأكثر من نصف قرن خرّجت آلاف الكوادر المتعلمة تعليما أيديولوجيا ، وبرغم موازنة ذلك بجهد اقتصادي وثقافي وخدمات اجتماعية وصحية ، إلا أنها لم تُسهم في حلّ أزمة الجنوب ، بل أضافت تعقيداً للإشكال التّاريخي ، فبنوعيه التعليم والثقافة التي غذت بهما عقول الجنوبيين ولدت طبقة منفصلة عن مجتمعها ، غريبة التكوين والتطلعات ، وبذلك وقع المثقّف الجنوبي في مأزق الاغتراب والانفصال. وبفقدانه لعامل التواصل الوطني ولانعدام الشعور بالإنتماء لجسد اجتماعي أكبر ، رأى الجنوبي أنّ البعد القومي يكمن في الإطار القبلي الجنوبي الضيّق ، بكلّ تفاصيله وأبعاده ، وفي جملة رموزه وما تواضع عليه ، مما أدّى به

(١) حسن مكي: السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان، ص٣٣.

إلى تبنّي خيار الانفصال برغم جهله بمآلاته.

وتزامنا مع اليقظة الإسلامية العفوية التي انتظمت المجتمع السوداني في ظلّ الدولة العلمانية بمختلف أطوارها ، أخذ العمل الكنسي اتجاهات جديدة في مواجهة المد الإسلامي المنساب من جهة الشمال. فلم يقتصر الجهد الكنسي على مضاعفة الجهود التبشيرية ، بل اتّجه نحو المشاركة في العمل السياسي المعادي للدولة الوطنية ، ثم الانخراط في التحريض والدفع نحو الاستعصاء والتمرّد تمهيدا للانفصال وإعلان الحكم الذاتي وحق تقرير المصير.

وتعتبر حادثة اعتقال الأب «اغسطينو» في ١٩٦٥/٠٨/٠٥ بتهمة تزويد المتمردين بالغذاء والسلاح ، أوّل حادثة معلنة تكشف انخراط الكنيسة الكاثوليكية في مواجهة الدولة عمليا. وفي ١٧ فبراير ١٩٦٦ أعلن مجلس الكنائس العالمي دخوله رسميا في حوار مع مؤتمر كل الكنائس الإفريقية لبحث الخطوات الواجب إتباعها سعيا نحو رفع المعاناة عن المسيحيين في جنوب السودان. وحتى لما توصل مؤتمر «أديس أبابا» في ٢٨ فبراير ١٩٧٢ إلى توقيع وثيقة حول الحكم الإقليمي الذاتي في إطار جمهورية السودان ، لم يعجب ذلك الكنيسة الكاثوليكية واعتبرت نفسها أنها قد خدعت من طرف الرفاق الجنوبيّين ، وفي أعقاب اتفاقية «أديس أبابا» اندفعت المنظمات الكنسية نحو الجنوب لإعادة ترتيب البيت من جديد ، ومواصلة مسيرة العزل والانفصال التي أسست لها تحت حماية المستعمر.

وبذلك اتّجهت الكنيسة إلى إعادة التجربة بأكثر حزم وتعويلا على برامجها الخاصّة ، التي تنزلها عبر أذرعها النافذة في الإدارة الإقليمية. ويمكن ملاحظة ذلك في سياستها التعليمية ، التي مرّرتها بحسب الخطوات التالية :

ـ في يونيو ١٩٧٤: اتخذ مجلس الشعب الإقليمي قراره بأن تصبح الإنجليزية لغة للتدريس في مدارس الإقليم الجنوبي.

ـ في نوفمبر ١٩٧٤: دعت وزارة التربية الإقليمية في جنوب السودان والمعهد الصيفي للسانيات ، وهو مؤسسة كنسية أجنبية ، للقيام بمسح للغات المحلية في الإقليم بهدف استعمالها في التدريس.

- في أبريل ١٩٧٥: قدّم المعهد الصيفي للسانيات تقريره بعنوان «اللغة والتعليم في جنوب السودان» لوزارة التربية الإقليمية.

- في سبتمبر ١٩٧٥: رفع وزير التربية الإقليمية تقرير المعهد الصيفي للسانيات للمجلس التنفيذي العالي للإقليم الجنوبي.

- في نفس الفترة أصدر المجلس التنفيذي العالي قراره رقم «٢٤٧» الخاص باستعمال اللغات المحلية في التدريس والنظر في أمر تدريس اللغة العربية كلغة ثانية.

وقد زعزع هذا القرار عملية التكامل القومي من خلال لغة التعليم ، بناء على قرار لمؤسسات إقليمية بنت توصياتها على خبرة وتوجيه مؤسّسة أجنبية. ولم تمر جملة هذه الأحداث التاريخية المتداخلة كغيرها من الأحداث العفوية في حياة الشعوب ، وإنّما خلّفت نُدبا في الشعور الوطني العام ، وتركت بصمات واضحة في التاريخ السوداني ، وكثيرا من الجراح الغائرة التي لم تندمل بعد. فلقد قام المشروع التنصيرى على جملة مبادئ يغذيها الجشع الاستعماري وتواطئ المؤسّسات الدينية ، التي من المفترض أن تخدم النسيج الوطني وتحرص على حفظه من التصدّع والانهيار ، لما لذلك من عواقب وخيمة ، هي ما يعاني منه السودان في هذه المرحلة الجد حرجة من تاريخه الحديث [١] .

*****

(١) للتفصيل راجع: مكتبة المجلس الوطني الإنتقالي: قسم المؤتمرات – صندوق رقم ١١- عدد القطع ٣٠.

المبحث الثاني
دخول الإسلام

الهجرات العربية والإنتشار الإسلامي :

تعتبر الصلة العربية النوبية قديمة جدا ، فهي ليست وليدة الفتح الإسلامي عن طريق تمدّد رقعة الدولة الإسلامية نحو مصر أو التسرّب العربي من جهة الشرق لقرب السواحل العربية الحجازية من أرض السودان ، بل يمكن إرجاع التأثير العربي في بلاد النوبة إلى سببين اثنين ، أوّلهما دخول الثقافة العربية الإسلامية بلاد النوبة وثانيهما تأثّر بعض النوبيّين بهذه الثقافة خارج حدود الوطن ، أي عند نزوحهم خارج بلاد النوبة. فصلة النوبة بالعرب ترجع في جزء منها إلى ما قبل ظهور الإسلام ، إذ حدثت عبر الطرق التجارية والرحلات ، أو بعض الحملات العسكرية التي تجاوزت الحبشة إلى بلاد السودان وأرض النوبة ، ثمّ زحف الجيش الإسلامي بعد فتح مصر نحوها ، وعقد عمرو بن العاص صلحاً مع النوبيين ، نصّت بنوده على فتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد ، والحفاظ على الأمن المتبادل.

ولّما لم يلتزم النوبيون بهذا العهد عند سماعهم بعزل عمرو بن العاص عن مصر ووفاة عمر بن الخطاب ﷺ ، بل توغلوا نحو الصعيد محاربين ، جرّد لهم القائد الإسلامي عبد الله بن أبي السرح قوّة عسكرية تبعتهم حتى دنقلة عاصمة مملكة «مقرة» المسيحية. فحاصرها ورماها بالمنجنيق ، ممّا أضطر ملكهم للخروج من حصنه والقدوم إلى عبد الله بن أبي السرح وطلب الصلح.

وبحكم أن العرب لم يكونوا قد استهدفوا فتحا توسعياً بل كانوا يحاولون وضع حد لإعتداءات النوبة على الصعيد ، فقد رحّبوا بعقد الصلح معهم شريطة الإيفاء بما يأتي فيه [1] . فصالحهم على رؤوس من البشر معلومة ، ممّا

---

(١) يوسف فضل حسن: الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان – ورقة ضمن كتاب، الإسلام في السودان: بحوث مختارة من المؤتمر الأول لجماعة الفكر والثقافة الإسلامية – دار الأصالة – أم درمان ط١/ ١٩٨٧ –ص١٧.

يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة. فصار ما قبض منه من السبي سنّة جارية في كل سنة ، وقد اصطلح على هذا السبي بالبقط ، وعدد ذلك ثلاثمائة رأس وخمس وستون رأسا ، يُدفع لبيت مال المسلمين ، بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة [١] .

اتفاقية البقط: عقد ضمان وأمان:

يعتبر هذا الاتفاق الكتابي صورة جديدة للعقود الشرعية الإسلامية ، فهو إضافة فقهية نوعية أجابت عن نوازل حدثت تطلبت حلا مناسبا يتّفق وطبيعة القضية. لذلك أُشكل مدلول هذا المصطلح على الكثيرين واختلفوا في تفسيره. فتراوح في مدلوله ومضمونه التعاقدي بين الجزية أو الضريبة أو معاهدة أمان ، بينما ذهب بعض المؤرخين إلى أنّه لم يتوفّر على تلك الخصائص القانونية ، فهو ليس بضريبة أو خراجاً مفروضاً من المسلمين على النوبة ، وإنما هو عهد تجاري وسياسي متبادل ، يلتزم بمقتضاه الطرفان بعدم التعدّي على أرض الآخر ، وبتزويد الآخر ببعض السلع التي تنقص في بلاد الآخر [٢] . وبالمثل فقد أصاب كثير من الفقهاء الحيرة في ماذا يسمون هذا النوع من الاتفاق ، لذلك سماه بعضهم اتفاقية هدنة وأمان. والحقيقة أنها كانت عهدا يجري بالصلح على شروط معينة [٣] .

وبرغم أنه لم يرد في الصلح ما يلزم المسلمين بدفع شيء للنوبة ، وإنّ ما جرى عليه العرف من إرسال كمية من الحبوب والملابس من المسلمين إلى النوبة فهو نتيجة اقتناع عبد الله بن سعد بحاجتهم إليها لفقر بلادهم ، فصار هذا التقليد رسما اتبعه كل من جاء بعده من ولاة المسلمين ، فهي مصلحة

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الفكر- بيروت- ط٥/ ١٩٧٣-م٢-ص٢١.

(٢) فانتيني: مصدر سابق: ص٧٢.

(٣) حسن عبد الله الترابي: (مرتكزات الحوار مع الغرب)، مجلة دراسات إفريقية- مركز البحوث والترجمة بجامعة إفريقيا العالمية- رمضان ١٤١٥- يناير١٩٩٥- العدد١٢- ص٣٠.

متبادلة [١] ، وأنّ ما أورده فانتيني من إلزام المسلمين بدفع مقابل لما يقدمه النوبة ، غير صحيح ، وذلك لاعتبار منطقي؛ وهو أن المسلمين حاصروا دنقلة وهم منتصرون ، وقد طلب ملكها الصلح اضطرارا ، فمن أين له أن يشترط جملة هذه الشروط التي تفوق في بعض الأحيان ما يقدمه للمسلمين؟.

ومن إيجابيات تلك الاتفاقية أن حصل المسلمون على جملة مزايا منها:

- حقّقوا الاطمئنان على سلامة الحدود الجنوبية.
- فتح البلاد للتجارة.
- الحصول على سواعد النوبة القوية.
- حفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية.
- نشر الثقافة الإسلامية في بلاد النوبة بالطرق السلمية.
- مثّلت هذه المعاهدة نوعاً من الاتصال الدائم بين المسلمين والنوبيين النصارى مدّة ستّة قرون.

وقد اختلف الأمر مع «البِجة» الذين لم يرد ذكرهم في معاهدة البقط. فلمّا أغاروا غدرا على نواحي صعيد مصر وأفسدوا ، جرّد عليهم المعتصم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم ، انتهت بموادعتهم وكتابة عقد مع رئيسهم كنون بن عبد العزيز [٢] طبقت فيه شروط البلاد التي تفتح عنوة. ومن أهمها:

- أن تكون بلاد البجة من حد «أسوان» إلى حدّ ما بين «دهلك» (مصوع) «وباضع» (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن كنون بن عبد العزيز وأهل بلده عبيداً لأمير المؤمنين ، على أن يبقى كنون ملكا عليهم.
- أن يؤدّي ملك البجة الخراج ، كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار لبيت

---

(١) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، طبعة ١٩٦٠، ص ١١٣.

(٢) يوسف فضل حسن: الإسلام في السودان: مقالة: الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان- ص١٧.

المال.

- أن يحترم البجة الإسلام ، ولا يذكروه بسوء ، ولا يقتلوا مسلما أو ذميا حراً أو عبداً في أرض البجة أو في مصر أو النوبة ، وألاّ يعينوا أحداً على المسلمين.

- إذا دخل أحد من المسلمين في بلادهم للتجارة أو الإقامة ، أو مجتازا للحج فهو آمن لآخر حدهم.

- إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين وتجارا ، لا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدائن والقرى.

- ألاّ يهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.

- على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد «البجة» لقبض صدقات من أسلم منهم.

ويدلّ الشرط الأخير على دخول الإسلام المبكر أراضي النوبة بل تجاوزها إلى المناطق الداخلية حيث تؤكّد البحوث الأثرية وجود مسجد في سنكات ، يرجع تاريخه إلى عام ٨٣١م [١] .

الدولة الإسلامية: من الحماية إلى الانتشار:

أعقبت حملة ابن الجهم على البجة وفود جماعات عربية من ربيعة وجُهينة وغيرها إلى «العلاقي» ، بعد أن وصلتها أنباء المعادن المتوفّرة في تُربتها وخصوبة أراضيها للرعي والحرث ، إلى جانب تشابه المناخ السوداني بصحاريه مع مناخ شبه الجزيرة العربية. وبذلك حصل التمازج الاجتماعي خاصّة التزاوج ، وكذلك تعلّم اللّغة التبداوية والتبادل التجاري والتملّك ، ممّا أثر بشكل كبير ودائم على هيئة البنية الاجتماعية للبجة ، وهو ما نلاحظه لاحقا من تعريب كامل لهذه القبيلة.

---

(١) يوسف فضل حسن: الإسلام في السودان: مقالة: الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان: ص١٨٨.

وفي المقابل ظلّ النوبة على طاعتهم يبذلون البقط سنويا ، ويُدفع لهم ما يقابله من جهاز ، حتى كان عهد المعتصم بالله فرفضوا دفع البقط لمدة أربعة عشر عاماً ، محاولين التخلّص من هذا العبء الذي كلفهم حروبا كثيرة مع جيرانهم لسبي العبيد أو اضطرّهم الأمر إلى دفع بعض أولادهم عند العجز عن السبي ، محاولين في كلّ ذلك التعرّف على مكامن قوة المسلمين لمواجهتهم وفك الارتباط بهم. إلاّ أنّ زيارة ابن عظيم النوبة ولي عهده إلى بغداد غيّرت رأيه لما بهره من كثرة الجيوش وعظمة العمارة ، فأدرك خطر مخالفة الخليفة على أمره ، فتمّ الاتفاق على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين ، في مقابل التزام المسلمين بدفع الجهاز.

ثمّ ما لبثت البجة أن غدروا بنقضهم العهد ، فأغاروا على الصعيد ومنعوا الخراج وأفسدوا كثيراً ، فحاربهم المتوكّل واضطرّ مَلِكهم للصّلح بدفع الخراج كاملاً وألاّ يمنع المسلمين من استغلال المعادن. فتوافدت قبائل العرب محتكرين هذه الصناعة ، وعن طريق التبادل النفعي اطمأن البجة إليهم فاختلطوا بهم وقَلَّ الاعتداء المتبادل ، ممّا مكّن للإسلام أكثر بين البجة. كما عمدت الدّولة إلى توفير شروط الاستقرار للعرب في هذه الأمصار ، بتكثير الجند لضمان الأمن ، والعمل على تنظيم نشر الإسلام وتجذيره ، والتشجيع على التمازج بالتزاوج والتكاثر لتغيير موازين الثقل البشري لصالح المسلمين.

ويعتبر عهد الدولة الطولونية فترة خصبة لانتشار الثقافة الإسلامية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية ، ويعتبر الفارين من السلطان التركي بمصر (القبائل العربية الخارجة عن إرادة السلطان من جهينة وربيعة ومضر ، خاصة بعد حملة الطولونيين على بلاد النوبة) هم رُوّاد هذا الانتشار الحضاري الجديد الذي نتجت عنه إمارات إسلامية تحالفت فيها القبائل العربية المهاجرة مع البجة خاصة المسلمين منهم. فقوي ساعدهم وأصبحوا يمثلون دويلات لها سيادة تعززت تدريجياً باستغلال مناجم المعادن ، وتأسيس بنيات اقتصادية قوية ، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي.

أمّا عن علاقة المسلمين بالنوبة فقد كان الأمر مختلفا نسبيا ، إذ تراوحت العلاقة بين الصلح ونكث العهود والإغارة على ديار المسلمين وممتلكاتهم بالصعيد. ويمكن اعتبار أمر استقرار جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش «بمريس» ، وشرائهم أراضي من النوبيين عمّروها واستغلوها لصالحهم ، عاملا مساعدا نسبياً في توفير بعض الاستقرار ومحاولات بسط الأمن من الجهة الجنوبية ، خاصّة مع بداية التحركات التجارية بين أرض مريس والبجة ، وما تخلّل ذلك من نشر للإسلام في المناطق الداخلية والنائية في أعماق الصحراء. إلاّ أنّ ذلك لم يكن كافياً لمنع إغارة النوبيين على مصر ، فقد شنوا باتّجاهها حملات كثيرة متتالية ، خاصة في أواخر عهد الإخشيديّين باستهدافهم الواحة الخارجية وأسوان... ، فقتلوا جمعا من المسلمين.

وبتأسّس الدولة الفاطمية بمصر سنة ٩٦٩م ، والقائمة أساسا على الدعاية والتوسّع ، بدأ التوجّه نحو الحدود الجنوبية لبلاد النوبة يأخذ شكلاً أكثر تنظيماً ، ابتداء من دعوة ملك النوبة إلى الإسلام إلى محاولة تقوية نفوذ المسلمين هناك ، كما عمل المسلمون على نشر الإسلام سلما بعد تعلمهم لغة النوبة. وممّا يرجّح تأثير الجماعات الإسلامية في الحياة النوبية ، وجود كتابات باللغة العربية في مقابر النوبيين بجانب اللغة القبطية ، ثم وجود تواريخ منفصلة حسب التقويم الهجري. ولقد لوحظ هذا التأثير في باقي المملكات النصرانية القائمة يومها ، مما يدل على التأثر العميق نتيجة الاختلاط وتبادل المصالح القائمة بين النصارى والمسلمين وكذلك الوثنيين.

وقد تميزّت العلاقات النوبية الفاطمية عن سابقها من الدول المتعاقبة والتي حكمها قانون الحرب والتدمير ، لذلك لم يجد الفاطميون مانعاً من الاعتراف بالإمارة العربية النوبية التي قامت في «مريس» ، بل واستعانت الدولة الفاطمية بالسودانيين في صفوف الجيش حتى بلغ عددهم ٤٠ ألف مقاتلاً ، مثلوا عامل تمرد وفتنة في عهد الدولة الأيوبية ، لعملهم الدؤوب على إعادة السلطان الفاطمي ، مما دفع بصلاح الدين الأيوبي إلى الاستعاضة عنهم بعناصر شمالية

كردية وتركية وديلمية.

ونتيجة لحرية حركة التنقّل المتبادلة ، وهجرة العرب المنتظمة نحو الجنوب ، واستنزاف قدرات النّوبة العسكرية باستقطاب المقاتلين في الجيش الفاطمي ، حدث تمازج نوعي مكّن المسلمين من النفوذ إلى مؤسّسات الدّولة ، والسيطرة على المراكز التجارية والاقتصادية بها. حتى أصبحوا شريكاً رئيسياً في الدولة ، لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروفة عند النوبيين ، عن طريق توريث ابن البنت أو ابن الأخت ، فاستفاد عرب ربيعة من ذلك ، وكَوَّنوا طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل «مريس» الذين زال عنهم السلطان الفعلي لملك النّوبة النصراني.

ثمّ سارت هذه الجماعات في رحلة جديدة إلى أرض البطانة والجزيرة ، وسار بعضها نحو كردفان ودارفور ، حيث التقت بجماعات أخرى تابعت هجرتها عبر شاطئ النيل الغربي حتى دنقلا ، فَوَادي المقدّم ، ووادي الملك ، حتى بلغت مملكة كانم – برنو- في أواخر القرن الرابع عشر ، حيث كان الإسلام قد بلغ تلك الجهة قبل عشرات السنين من طريق بلاد المغرب وشمال إفريقيا عامة ، واستقر هؤلاء المهاجرين في سهول أواسط السودان الغنية المرعى وانفتحوا على الأهالي من نوبيين وبجة وزنج وغيرهم ، فصاهروهم كما فعلت ربيعة في بلاد البجة والمريس منذ مئات السنين. ونتيجة لهذا التلاحم بدأت الملامح العربية تترك بصماتها واضحة ، لتصير لاحقا ذات مدلول حضاري متناسق.

ولصعوبة المناخ الإقليمي بكردفان ودارفور اضطرت هذه الجماعات إلى التخلي عن الإبل والاستعاضة عنها بالبقر في ترحالها ، وبذلك عرفت بعرب البقارة. إلا أنهم لم يقدروا على مواصلة المسير نحو جنوب بحر الغزال وبحر العرب ومنطقة السدود بسبب ذبابة «التسي تسي» التي تؤذي الأبقار. فكانت تلك المنطقة الاستوائية آخر ما بلغه العرب في هجرتهم نحو الجنوب ، ولم ينتشر الإسلام فيما يعرف بجنوب السودان حالياً إلا في العهد التركي. ونتيجة للسياسات التوسعية التي انتهجها محمد علي باشا والي مصر العثمانية وأحفاده

من بعده وبخاصة الخديوي إسماعيل في القارة الإفريقية ، اتسعت رقعة البلاد حتى شملت أجزاء كبيرة من أعالي النيل الأبيض. وبذلك بدأت المرحلة الثالثة من المدّ الإسلامي ، والذي قام به خليط من النوبة المستعربين والجنود السودانيين إلى جانب تجّار الرّقيق العرب [١] .

وبحصول الاستقرار وظهور التكوينات القبليّة الكبرى ، بادر عبد الله جماع القاسمي إلى توحيدهم وسار بهم نحو القضاء على مملكة علوة النصرانية في منتصف القرن الخامس عشر. إلاّ أنّ مدّة تفرّد العرب بالسّلطة لم تدم طويلا ، إذ سرعان ما نازعهم الأمر بَدْوٌ سُود اشتهروا بتربية البقر وعرفوا باسم الفونج ، والذين تمكّنوا في سنة ١٥٠٤ من بسط نفوذهم على العبدلاب وجملة رعاياهم العرب وباقي المجموعات المستعربة حتى الشلاّل الثّالث ، وعلى أجزاء كبيرة من كردفان وبلاد البجة ، وكانت تلك البداية التاريخية لقيام مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء.

لم يكتمل إسلام السودان إلاّ بقيام الممالك والسلطنات الإسلامية ، وذلك لأن النصرانية لم تنته بسقوط الكيان السياسي للنوبة وعلوة ، بل بقيت بعض مظاهرها (الشعائر ، العادات...) في أقصى الشمال ، حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. بل تشير البحوث إلى وجود بعض بقايا النصارى في جزيرة «تنقسي» بالمديرية الشمالية حتى سنة ١٧٤٣ ، وهو ما رجّح أن الإسلام والنصرانية ظلاّ طويلا يعيشان جنبا إلى جنب ، خاصّة وأنّ نشر الإسلام لم يتم في الأغلب عنوة ، إذ لم يفرض على الجماعات الوطنية التي التحم بها المسلمون ، وإنّما حصلت الأسلمة تدريجيا وسِلما ، وهو السّمة العامة للانتشار الإسلامي في كلّ البلدان.

---

(١) يوسف فضل حسن: إنتشار الإسلام في سودان وادي النيل - ورقة قدمت في ندوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، نظمها معهد البحوث والدراسات العربية تحت عنوان: العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم: ٢٩- ٣٠ يوليو - تموز ١٩٨٣ - طبعة بغداد/ ١٩٨٥.

كان لرجال الطّرق الصوفية دور مهمّ في نشر الإسلام وتجذيره ، مثل الطريقة القادرية والشاذلية والسمّانية والختمية. إذ اتفق المنهج الصوفي في الدّعوة مع مستوى النّاس وأوضاعهم ، والقائم أساسا على شرح مبادئ الإسلام ومداومة الأذكار ، إلى جانب اعتماد أساليب الاستمالة النفسية ، باستعمال الطبول والترانيم ، مما دفع بالكثير للانخراط في هذه الطرق التي امتاز شيوخها بالتديّن والخُلق الحسن؛ من زهد وورع وصلاح وحبّ الخير ودفع الظّلم وحماية الضعفاء. فتأثّر بذلك الملوك والسلاطين فاتخذوا منهم بطانة يستعينون بها في المشورة وقضاء الحاجات.

الممالك والسلطنات الإسلامية في السودان:

تأسّست بالسودان ممالك وسلطنات إسلامية عدّة ، قام بعضها على أنقاض الدويلات النصرانية البائدة ، ونشأ بعض آخر في البيئة الإسلامية الجديدة ، استجابة لحاجة الاجتماع البشري الإسلامي لسلطة تحميه وتسوسه ، وتعمل على الانتشار بالإسلام في أرض لم تبلغها كلمة الله من قبل. ولكثرة التجارب والنماذج سنقتصر على ثلاث من أهم الممالك الإسلامية ، التي تميزت بخصائص الدولة الدستورية والتشريعية في معانيها البسيطة المؤدية للغرض ، والمعبرة عن الفهم المتطور لنصوص الشرع واستيعاب لتجارب الدولة الإسلامية المتعاقبة ، وهو ما يبرز في مختلف المهام والوظائف وشبه الدواوين التي عرفتها هذه السلطنات. ومن أبرزها:

سلطنة الفونج:

تعتبر مملكة الفونج أول دولة إسلامية ذات قواعد سياسية وإدارية ونظام قائم تظهر في السودان. وعلى الرغم من عدم وجود دليل على عروبة ملوكها ، إلاّ أنّ الفونج يقولون بأنّهم عرب ، وكانوا يُدَوِّنون وثائقهم بالعربية وينسبون أنفسهم إلى بني أمية. ويذهب المسعودى والمقريزي إلى أنّهم من نسل بني أمية فروا من العبّاسيين وذهبوا إلى الحبشة ثم صعدوا مع النّيل الأزرق في منطقة سنّار. وقد ظهر الفونج في وقت اشتدّت فيه الحاجة وسط السودان إلى دولة

قويّة تُقرّ النظام وتحمي النّاس ، تزامن ذلك مع ضعف دولة علوة (العنج) وتكاثر القبائل العربية في بلادها ، والتي قامت الحروب بينها ، حتى أصبح حوض النيل الأوسط مقسّما إلى ممالك ومشيخات كثيرة لا ينتهي الصراع بينها. لذلك قرّر «عمارة دنقس» القضاء على بقايا دولة علوة وإقامة نظام إسلامي جديد ، ثمّ تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وحلفائه الكثيرين فالتفوا على العنج وانتصروا عليهم ، ففرّت بقاياهم إلى جبال «فازوغلي» وكردفان ، واختفى بعضهم في سكان البلاد من المسلمين ودخلوا الإسلام.

وعقب ذلك قامت دولة الفونج التي شملت معظم أراضي مملكتي مقرة وعلوة السابقتين ، وانفرد عبد الله جماع بالقسم الشمالي من المملكة ، وجعل عاصمته مدينة «قرى". أمّا عمارة دنقس فقد بسط سلطانه على الجنوب ، واتّخذ مدينة «سنّار» عاصمة له. ويذهب البعض إلى أنّ انفراد عبد الله جماع بهذه المنطقة الشمالية تم في أواخر أيام عمارة دنقس. وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين ومدّت نفوذها حتّى مدينة «سواكن» و"مصوّع» حيث وضعت حاميتين عسكريتين ، تمكّن عمارة دنقس من إقناعهم بأنه ملك مسلم وأنّ سكّان بلاده عرب مسلمون ، وألاّ داعِي لأن تخشاهم الدولة العثمانية على سلطانها.

تعاقب على مملكة الفونج بعد عمارة دنقس ثلاثة ملوك طوّروا الدّولة ومكّنوا لها. إلا أنها بدأت تضعف وأخذت طريقها للأفول في أيّام الملك «عدلان وداي» الذي هَجَّر شيخ العبدلاب في حرب ذهبت بقوّة المملكتين ، وبوساطة الشيخ إدريس ود الأرباب تمّ الصلح بينهما وأذن «عدلان» برجوع أسرة «عجيب» لسلطانهم. وبعده سلك «بادي سيّد القوم» سياسة توسعية ترمي إلى مد نفوذ السلطنة ، التي سرعان ما بدأت في التآكل الداخلي باستقلال قبائل الشايقية التي تسكن منطقة حلفا حيث العبدلاب. فتفكّكت مملكة سنار إلى مشيخات قبائلية مستقلّة ، لا تفتر الحرب بينها. ومن أهمها:

ـ مشيخة العبدلاب: من حجر العسل إلى سوبا (بين أربجي والشلال الثالث).

- مشيخة خشم البحر: على النيل الأزرق الشرقي ، بين الرصيرص وفازوغلي.

- مشيخة بني عامر: في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور «بركة".

- مشيخة الحلانقة: في جبل كسلا على القاش.

- مشيخة الشنابلة: على النيل الأزرق شمال سنار.

- مشيخة الجعليين: بين حجر العسل والدّامر ومركزهم شندي.

- مشيخة الميرفاب: في شمال الجعليين (مركزهم بربر).

- مشيخة الرباطاب: فيما وراء أبي حمد.

- مشيخة المناصير: من المشاخية إلى الجندل الرّابع.

- مشيخة الشايقية: يسكنون حول دنقلا[١].

استحالت المملكة في آخر عهدها حلبة صراع بين المتنافسين ، انتهت إلى سلطان «الهمّج» الذين ظلّوا يتوارثون ذلك حتى سقوط الدولة. لذلك لّما زحف الجيش التركي المصري عام ١٨٢٠ لم يجد أي مقاومة تذكر إلا من الشايقية في الشمال ، فخضعت له البلاد بعد أن مزقتها الخلافات القبلية وصراعات الفونج والهمّج فيما بينهم[٢].

سلطنة الفور:

نشأت في أواسط القرن السابع عشر على الأطراف الغربية من بلاد السودان. وتمثّل واحدة من مجموع السلطنات الإسلامية التي انتشرت في أواسط البلاد.

---

(١) شوقي الجمل: مصدر سابق: ص٣١١.

(٢) يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي: ١٤٥٠/ ١٨٢١، الدّار السودانية ط٢/ ١٩٧٢-ص٧٧

وقبل قيام سلطنة الفور شهدت هذه الأقاليم هجرة القبائل العربية الوافدة من مراكش وتونس ، عبر المسالك الصحراوية التي تنحدر من طرابلس نحو الجنوب ، كما عرفت انتشار بعض مظاهر الثقافة الإسلامية.

ويرجّح المؤرّخون أنّ الميلاد الحقيقي لهذه الدولة المسلمة قد اقترن بسليمان سولونج (أي الأحمر أو العربي) الذي ظلّ أحفاده يحكمون دارفور حتى ١٨٧٣ ، عندما هزمها الزبير باشا رحمة [١] وقدّمها هدية للخديوي إسماعيل ، وحمل الباقون من أمرائها وأسرتها الحاكمة إلى مصر حيث أُسكنوا وقرّرت لهم الحكومة معاشا ثابتا [٢] ، ولكنها ما فتئت تعاود الظهور المرّة تلو الأخرى حتى ضمّت إلى السودان الإنجليزي المصري عام ١٩١٦ [٣] ، بعد القبض على الأمير «علي دينار» ، وبذلك أصبحت دارفور مديرية عادية تابعة للحكومة.

ويُعَدّ محمّد بن السيّد عمر التّونسي [٤] من المؤرخين القلائل الذين ضبطوا سيرة هذه السلطنة لإقامته المطوّلة بديارها. فقد قام بترتيب سلاطينها ، ومدد حكمهم ما بعد مؤسّس السلطنة ، وعَرَض نظام الحكم فيها ، وحالتها السياسية ، ونظام جيشها ، ووضعها الاقتصادي ، وعلاقتها التجارية والحركة العلمية فيها ، خاصّة على عهد عبد الرحمن الرّشيد ، الذي اشتهر بعدله ، وشغفه بالعلم ، فوفد عليه الأشراف والعلماء ، مثل عمر التونسي ومحمد

---

(١) أحد تجّار الرقيق والعاج في السودان.

(٢) شوقي الجمل: مصدر سابق- ص٣١٦.

(٣) يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان وإفريقية وبلاد العرب: مطبعة جامعة الخرطوم- دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١/ ١٩٨٤- ص٢٢-٢٤.

(٤) رحالة تونسي زار دار فور عام ١٨٠٣، وبقي بها سبع سنوات ونصف، وانتقل منها إلى (واداي) في الغرب بحثا عن أبيه، وقد ألّف كتابا سماه «تشحيذ الأذهان لسيرة بلاد العرب والسودان»، وقد ترسّم خطاه رحالة تونسي آخر يسمى محمد زين الدين، زار السودان ومكث بها عشرة أعوام، تعرف خلالها على سنّار وكردفان ودار فور و «واداي» ، واشتغل بالتدريس. وقد ضاع الأصل العربي لمذكراته، إلاّ نسخة تركية وأخرى ألمانية طبعت سنة ١٨٤٦م: يوسف فضل حسن، مصدر سابق، ج٢ / ص ٥٥.

كريتم والشريف سرور بن أبي الجود ، وعبد الكريم بن الفقيه حسن ود عوّوضه وعز الدّين الجامعي وحسن ود عمارة وغرباوي [١] ، إذ كان للفقيه في دارفور أعلى منزلة بعد رجال السلطان.

فأضفى تشجيعه للعلماء وطلبة العلم مسحة إسلامية على الدولة ، وقد بلغت سلطنة الفور أوج عظمتها في عهده ، إذ انفتحت البلاد على مؤثّرات خارجية ، بتشجيع هجرة سكّان وادي النيل من الجعليين والدناقلة الذين أصاب حياتهم فتور لتدهور مملكة الفونج ، وقد اشتغل هؤلاء بنشر الإسلام والعمل التجاري ، خاصّة تجارة الصمغ والعاج والرقيق والذهب. ثم ازدادت صلة دارفور بالعالم الخارجي مع إيفاد السلطان سفراء لكلّ من الخليفة العثماني باسطمبول ونابليون بونابرت لانتصاره على المماليك ، إضافة إلى موقعها الجغرافي المهمّ بتوسّطها ملتقى طرق تجارية رئيسيّة:

أوّلها درب الأربعين ، يصل بين أسيوط في صعيد مصر و «كوبي» الواقعة شمال غرب الفاشر ، وهو طريق آمن يسلكه التجّار باستمرار.

ثانيها طريق يبدأ من غرب بلاد السودان و «برنو» و «واداي» إلى «كبكبية» ومنه إلى كردفان ، وسنار ، وشندي ، والبحر الأحمر إلى مكة والمدينة ، فهو طريق تجارى ودرب للحجيج.

ثالثها طريق يربط دارفور بتونس وطرابلس ، وقد ارتبطت أهمية هذا الطريق بتوجّه السلاطين نحو شمال أفريقيا لشراء الأسلحة.

وفي عهد السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن (١٨٠١-١٨٣٩) بدأت مظاهر الضعف تدبّ في الدّولة ، فضعفت سلطتها وقلّ نفوذها ، فدخلت الجيوش التركية المصرية كردفان بقيادة الدفتردار «خسرو». إلاّ أنّ الوضع لم يستقر لها لتعدّد الثورات التي أنقذت السلطنة مؤقتا ، حتى الغزو التركي المصري عام ١٨٧٤.

---

(١) محمد سليمان: دور الأزهر في السودان، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ / ص٥٤.

سلطنة تقلي:

نشأت في القرن السّادس عشر غرب الأُبَيِّض وجنوب كردفان حيث جبال النوبة ، وهي تتّمتع بموقع جغرافي هام ، إذ تقع بين سلطنتي سنار ودارفور. وترجع بدايات تأسيس هذه الدّولة من حيث النسب إلى محمد الجعلي الذي قدم من ديار الجعليين في الشمال ، وقد اجتذب قلوب أهالي منطقة تقلي لتديّنه وحسن خلقه ، فحاز مكانة هامة لدى خاصّتهم وبين عامّتهم ، فزوّجه زعيم تقلي «كيركير» ابنته ، فأنجب منها ولدا سمّاه «أبا جريدية» ، فشبّ على هدي والده ، وصار داعية ينشر تعاليم الإسلام بين أهله.

وبموت جدّه من أمّه نُصِّب ملكاً على تقلي حوالي سنة ١٥٧٠ ، وبذلك وُلِدت مملكة تقلي الإسلامية ، التي امتدت سيادتها حتى آخر القرن السّابع عشر ، ثم استمر أحفاده يُكوّنون زعامة محلية معتبرة حتى عهد قريب ، حيث تولى الأمر سنة ١٩٧٠ الملك الأمير الطيّب آدم جيلي[١]. وكان ملوك تقلي عاملين على نشر الإسلام في تلك الربوع ، عن طريق الدعوة المباشرة والاختلاط والمصاهرة وتشجيع القبائل على الاستقرار بينهم ، ممّا دفع بكثير من الجماعات العربية إلى التوغّل في المناطق المجهولة ، كما شجّعوا العلماء على الإقامة في ديارهم ونشر العلم ، ولم يجدوا غضاضة في دخول الطرق الصوفية لديارهم. ويعتبر تاج الدّين البهاري ناشر الطريقة القادرية في مملكة الفونج ، أوّل من شق طريقه إلى جبال النوبة ، التي عرفت اتصالاً بالتصوّف منذ أمد بعيد.

وبفضل جهود ملوك تقلي صار سكّان هذه المناطق أمة واحدة تدين بالإسلام ، وتتشرّب كثيراً من مظاهر الثقافة العربية ، وقد جرت محاولة تحالف بين سلطان سنار وتقلي للحدّ من نفوذ الفور ، إلاّ أنّ علاقة المصاهرة لم تدم طويلاً ، لعمل سلاطين الفور على مدّ سلطانهم نحو حوض النيل ، فتقرّبوا من

---

(١) عبد القادر محمد عبد القادر دوره: تاريخ مملكة تقلي الإسلامية، مطبعة المركز الإسلامي الأفريقي، س١/ ١٩٩٤-ص١٦.

سلاطين تقلي وقبائل الشايقية ، ممّا دفع سلطنة سنّار إلى غزو سلطنة تقلي والزامها بدفع الجزية سنوياً ، إلا أن هذا النفوذ لم يدم طويلاً ، لانشغال سلاطين سنار بمشاكلهم الداخلية.

بعد القضاء على سلطنة الفونج أرسل الحاكم محمّد علي إلى عمر بن أبي بكر (١٨١٤-١٨٢٧) سلطان تقلي يومها يدعوه إلى الاعتراف بسيادة مصر عليه ، إلاّ أنّه رفض ذلك لاعتباره شكلا من الاستعمار القاهر. وفي عهد حكمدارية أحمد خورشيد باشا للسودان أرسل حملة إلى تقلي وعقدت معاهدة صداقة مع السلطان. ولّما اشتدّ الخلاف بين الأسرة المالكة ، فر ناصر بن أبي بكر إلى الخرطوم طلباً للعون المصري مقابل الاعتراف بهم ودفع جزية سنوية من العبيد والعاج ، ولّما تمّ له ذلك نقض اتفاقه معهم ، وبالمثل رفض السلطان آدم دبالو (١٨٥٩-١٨٨٤) الاعتراف بسلطان مصر عليه ، وعمد إلى نقل عاصمته إلى «كوبيه» ولّما قامت الثورة المهدية تردّد في الانضمام إليها ، وباستيلاء المهدي على «الأُبَيِّض» سار إليه بجملة ثروته ورجاله ، إلاّ أنّ المهدي قبض عليه ، وأودعه السّجن حيث قضى نحبه.

واقع الممالك الإسلامية السودانية:

لم تكن الممالك الإسلامية التي ظهرت في مختلف أنحاء السودان ، على الصّورة التي أرادت كثيرا من الدراسات الأجنبية تقديمها. فجعلت من السلطنات الإسلامية مجرد إقطاعيات يحدّد ملامحها ثالوث الإثراء والرق وحب السلطة. وبذلك رسمت صورة مغلوطة عن تجربة معتبرة ، قامت في فترة زمنية غير مسبوقة ، تعتبر بمقاييس يومها مثالاً في إدارة شؤون الدولة: الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية... ، وتحدّد بشكل دقيق وجهة الجماعة الملتزمة بتعاليم الإسلام.

إن أغلب ما كتب عن الممالك الإسلامية لم يتجاوز التأريخ للصراعات العرقية ومحاولة التوسّع على حساب الآخر وعقد التحالفات. وفي أقصى

الحالات موضوعية نجد عرضاً تاريخياً باهتاً لتعاقب السلاطين على العرش ، وتغييب في ثنايا تلك المعالجات صور التحضر الإسلامي والتميّز الثقافي الذي أسّست عليه هذه الممالك ، والتي عملت باختلاف مواقعها على التزام هدي الإسلام وتحكيم شرع الله في حياة الناس ، ونشر الإسلام في أطراف البلاد.

إلاّ أنّ ذلك لا ينفي وجود بعض الانحرافات وسوء الفهم الذي لا تخلو منه أي تجربة إنسانية جديدة ، سيما وأن بعض النّاس في تلك الممالك كان حديث عهد بالإسلام ، أو أنّ فهمه للإسلام كان يكتنفه قصور وتشوّه ، خاصّة لموقع تلك البيئة التي تفصلها عن مركز الإشعاع الديني فواصل جغرافية كبيرة. ويمكن أن نعرض إلى مسألتين مهمّتين تبرزان ملامح النهضة الحضارية لتلك الممالك الإسلامية التي عمّرت طويلاً في أطراف السودان ، وهما تجربة الحكم والإدارة ، وتاريخ التّعليم الدّيني في السودان.

تجربة الحكم والإدارة:

قامت الممالك الإسلامية كأوّل مشروع إسلامي ، لتجميع أبناء الأمة تحت سلطة موحدة ، قائمة على شؤون حياتهم؛ بحماية الدين وسياسة الدنيا بها ، حتى لا يبقى مسلم أو جماعة من المسلمين تابعة لسلطنة وثنية أو قبلية ، قوة ضائعة لا تستفيد منها أمة الإسلام ، وقابلة للتفتت والانتهاء لعامل التراخي والعزلة ، ولغياب إطار مجتمعي يتوحّدون فيه ويتفاعلون داخله. كما أن الحدود السياسية والإدارية للممالك الإسلامية مجتمعة دليل على حجم الانتشار الإسلامي ، أمّا عن الحدود الإقليمية[1] فهي دليل على قدرة الشيوخ على تجميع المسلمين في مختلف أطراف البلاد ، لرعاية مصالحهم وحصول النفع بينهم ، وتقاسم أمر الدعوة.

هذا إلى جانب وجود تحالفات قديمة قامت بين مختلف القبائل العربية المسلمة المهاجرة إلى جانب تحالفات بينها وبين الوطنيين انتهت إلى ممالك إسلامية. كما

---

(١) اعتبرت هذه الحدود في مرحلة تاريخية لاحقة عامل تفكّك وانفصال، غذته أسباب حبّ السلطة والاستبداد.

أن الامتداد الجغرافي السوداني لا يساعد على وجود سلطة مركزية واحدة لإدارة أمر دولة الإسلام المتحدة ، وهو ما نلاحظه في دولة الفونج التي امتد ظلها ليغطي مساحة شاسعة ، فقسمت إدارياً إلى ممالك ومشيخيات خاضعة سياسياً لسلطة مركزية عاصمتها «سنار". فيعتبر بسط السلطة خضوع الناس لإمام الأمة ، واجتماعهم حوله ، أما عن التنظيم الإداري فإنّه تقاسم للأدوار رعاية لمصالح العباد ولحصول النّفع ، لذلك كان شكل الدولة عامة متقارباً نسبياً.

ففي سلطنة الفونج مثلاً يقسم الهيكل السياسي والإداري إلى:

ـ سلطان: يختار عادة من بين أبناء السلطان السابق ، أو أخوته أو أعمامه بواسطة مجلس من كبار رجال الدولة ، وتقام مراسم خاصة للتتويج ، تقدم فيها البيعة. ويسمّى مركز القيادة بالدّيوان السلطاني.

ـ العلماء ومشايخ الطرق الصوفية: حيث يؤمّ مجلس السلطان العلماء وأهل المشورة ، كما يقومون على أمر نشر الدّين وتعليم النّاس.

ـ المشيخيات المحلية: وهي التقسيم الإداري للسلطنة ، قائمة على مصالح الناس ورعاية شؤون الدولة ، بجمع الضرائب والزكاة والرقيق والرسوم التي تحصّل من التجارة المارّة في المحطات الكبرى...

أمّا عن سلطنة الفور فإنّها تُقسّم إلى أربعة وعشرين قسماً ، على كل قسم رئيس يعرف (بالملك) ، له حاشيته وحرسه الخاص. ومن تقاليد هذه السلطنة:

ـ ملكية الأرض: تعتبر الأرض ملكاً للسلطان يعطيها المشايخ والأمراء.

ـ الوزير: يعيّنه السلطان ويقيله متى شاء.

ـ مجلس السلطان: وهو مجلس استشاري لمناقشة القضايا الهامة.

ـ بيت المال: يعين السلطان من يقوم على بيت المال ، ويُمدّه بعمّال لجمع العشور (عشر ما يباع في الأسواق في الحضر) والزكاة والجزية وإدارة الأوقاف.

- القضاء والإفتاء: يقوم عليه العلماء.

- الجيش: يتكوّن من رعايا السلطنة إلى جانب الرقيق الذين يحاربون مقابل غنائم توزّع بينهم.

وفي سلطنة تقلي ساد تقليد سياسي يقوم على مبدئي الشورى والجرح والتعديل. إذ ليس للملك الانفراد بالسلطة ولا بالرأي في مسائل الحكم ، بل يجب أن يكون حكمه وتصرفه دائماً بعد أن يطرح الأمر على المجموعة وأصحاب الرأي ، فيأخذ برأي الأغلبية. كما يخرج الملك سنوياً مع أتباعه في أوّل موسم «الدرث» لحرق «النيلة» الشرقية والغربية ، ثم يطوف بأرجاء المملكة لتفقّد أحوال الرعية والاطمئنان على نزول الأمطار وزراعة المحاصيل. وفي هذه الفترة يجتمع رجال الشورى وتُناقش سيرته الذاتية ، فإن أجمعوا على عدله وحسن سيرته ، أرسل من يدعوه للعودة ، وإن كان غير ذلك أرسل إليه إعلام بالخلع وأنه ليس له الحق في الرجوع إلى هذه الديار بل يضرب في الأرض حيث شاء. ومن مؤسّسات الدولة:

- الوزراء: للملك وزير خاص بالأمور السريّة ووزير خاص بمراقبة تنفيذ القرارات.

- مجلس أهل الديوان: يتكوّن من كبار المشايخ.

- مجلس الأرابيب: وهو مجلس سرّي جلساته مقفولة لمناقشة الأمور الحساسة من تتبّع المؤامرات ، ومراقبة انحرافات بعض رجال الدولة ، والسهر على أمن الدولة وحدودها ، ويستمدّ تقاريره من أربعة أشخاص يعينهم الملك ويسكنون من الجهات الأربعة.

وقد اعتبرت تجربة سلطنة تقلي رائدة ، إذ حاول الإنجليز الاستعانة بهم لِما وجدوه فيهم من قدرة على مسك السلطة والتسيير الإداري.

تاريخ التعليم الديني:

انتظمت السودان حركة علمية فريدة ، تقوم على مبدأي التعليم ونشر العلم.

ممّا مكّن للمعرفة الدينية وتأسيس مراكزها على أيدي علماء كثيرين جلسوا لتفقيه الناس وتعليمهم أمور دينهم. وبذلك انتشر التعليم في معظم أطراف البلاد ، ممّا ساعد على بسط الشريعة وعلومها ، ويسّر على النّاس التمسك بدينهم ، وأسهم في انتشار الإسلام ، وتواصل الحركة العلمية والتربوية التي قام عليها رجال الفقه والتصوّف ، منهم الأزهري ومنهم من تتلمذ على العلماء العائدين ، ومنهم عصامي التكوين وآخر سلك الطريق منذ طفولته فورثه إجازة.

فعُرف منهم: محمود أحمد العركي[١] ، وأولاد جابر؛ إبراهيم[٢] وإسماعيل[٣] ، وعبد الرحمن[٤] الذي اشتهر من تلاميذه: عبد الله بن دفع الله العركي[٥] ، وعبد الرّحمن بن الشيخ النويري[٦] ، ويعقوب بن الشيخ بانقا الفرير[٧] ، ومحمد بن عيسى سوار الذهب[٨] ، وإبراهيم بن أم رابعة[٩] . وعرف كذلك

---

(١) ولد بالأبيض ودرس بمصر وأخذ على الناصر وشمس الدين اللقاني، وهو أول من أمر الناس بالعدة: حيث كانت المرأة تطلق وتتزوج في يومها أو ثانيه، قدم قبل أولاد جابر.

(٢) هو الحجة الرحالة إبراهيم بن جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله، ولد السادة الركابية، ولد بأرض الشايقية، تتلمذ بمصر على يد الشيخ محمد البنوفري، أخذ عنه الفقه والأصول والنحو وهو أول من درس خليل ورسالة أبي زيد القيرواني ببلاد الفونج. وله تلاميذ علماء كثر تجاوزوا الأربعين انتشروا في مغارب البلاد لتعليم الناس.

(٣) شيخ وإمام ورع زاهد تفقه على أخيه عبد الرحمن، وجلس بخلوته من بعده، وقد تتلمذ عليه الشيخ صغيرون، والشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو.

(٤) تتلمذ على أخيه إبراهيم والشيخ محمد البنوفري، خلف أخاه في تدريس الفقه، وله ثلاثة مساجد في دار الشايقية وكورتي والدفار، وكان من تلاميذه من استقر في أنحاء البلاد حيث جلس للتدريس.

(٥) ولد بأبيض ديري. وحفظ الكتاب على أبيه، درس بدار الشايقية، تولى تدريس الناس في مقام الإمام مالك بالحجاز ثم رجع إلى الجزيرة.

(٦) له باع في القضاء وفصل الخصومات، وقد تنقل في أطراف البلاد للتدريس، تولى القضاء على جهة السلطان عجيب في سلطنة سنار.

(٧) أخذ الطريقة عن والده، وأخذ علم الدين والشرائع عن عبد الرحمن بن جابر، أوقد نار القرآن والفقه والتوحيد، وخلف أباه في تربية المريدين وإجازة السالكين.

(٨) قرأ خليل على أبيه، قرأ العقائد والمنطق وعلوم القرآن على المصري، وسلك عليه الطريق، ثم انتشر علمه في جزيرة الفونج.

(٩) ولد بحجر العسل: أخذ العلم عن عبد الرحمن بن جابر، الذي جعله أحد الأقطاب وقال فيه كلاما جيداً.

محمد بن سرحان المعروف بصغيرون [١] ، وقد اشتهر من تلامذته: ابنه الزين وعلي ود برّي [٢] ، اللّذين تلقى العلم عنهما أرباب بن عوف المعروف بأرباب العقائد [٣] ، وقد عرف من تلاميذه: خوجلي عبد الرحمن [٤] ، وفرح ود تكتوك [٥] ، وعرف كذلك عبد الرحمن حمدتو [٦] ، الذي خلفه تلاميذ برزوا في العلوم الشرعية ، ووضعوا مصنّفات هامّة في الفرائض إلى جانب الحواشي والشروحات ، خاصّة فيما يتعلّق بالفقه والتوحيد ، من أهمّهم : عبد الله الأغبش [٧] وإبراهيم بن عبّودي [٨] ، وقد عرف كذلك من العلماء عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبي سلاح الكناني [٩] ، وعلي ود عشيب [١٠] .

---

(١) ولد بدار الشايقية، جمع بين الفقه والتصوف، وبرع في الفقه على خاله إسماعيل ولد جابر وأجازه للتدريس، قرأ خليل على الشيخ محمد البنوفري، نشر العلم في دار الجعليين حيث أنشأ مسجداً في قوز المطرق الذي صار يعرف بقوز العلم وقد اشتهر ابنه الزين من بين تلاميذه.

(٢) جمع بين العلم والعمل والتصوف، مدحه العارفون، وله من التآليف شرحه الكبير على أم البراهين في نحو أربعين كراساً والصغير في نحو عشرين وقد انتشر علمه في أرجاء البلاد.

(٣) أرباب بن علي بن عون، سمي الخشن لخشونة جسمه من الوضوء والغسل وسمي أرباب العقائد، شدت إليه الرحال في علم التوحيد والتصوف، له كتاب في أركان الإيمان سماه «الجواهر في أركان الإيمان".

(٤) ولد بجزيرة توتي، وأخذ عن محمد بن الشيخ إبراهيم البولاد، أخذ التصوف من الفقيه أرباجي، ودرس خليل على الشيخ الزين ولد صغيرون، جمع بين التصوف والفقه.

(٥) قرأ العقائد على الفقيه أرباب، ولازم الخطيب عمار، وقرأ عليه علم العربية، وكان شاعراً ماهراً، له كلام في الزهد والتوحيد والأدب وخسة الدنيا.

(٦) درس على الشيخ محمد البنوفري، وإسماعيل بن جابر، عاد إلى السودان ليقوم على مهمة التدريس في المساجد والخلاوى.

(٧) حفظ الكتاب على أبيه، وقرأ أحكام القرآن على الشيخ عيسى ولد كنو، شرح الخرازة والجزرية، ونظم الهداية والتحفة في أحكام القرآن.

(٨) المشهور بالفرضي، قرأ على خاله المسلمي، ثم رحل إلى الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو، كان ذا علم وصلاح ودين، وانقباض عن أهل الدنيا. درس مختصر خليل، وألف الحاشية المشهورة بالفرضية.

(٩) ولد بدبة غشار، ودفن بسنار.

(١٠) مولده بدنقله، درس على الشيخ محمد البنوفري بمصر. ولاه ملك الفونج القضاء، دفن بالعيدي.

وهكذا نشأت المدن والقرى حول هؤلاء العلماء ، وتولّت بيوت دينية بعينها تأسيس المدارس وإيواء الطلاب ونشر العلم في البلاد منذ ذلك العهد ، كمدارس الشايقية في دنقلا والغبش في بربر ، والمجاذيب في الدامر وقوز العلم في شندي وتوتي والعليفون وكترانج وأبي حراز ، وأم ضواً بَان ، وغيرها كثير [١] .

إلى جانب ذلك عرفت ثروة هائلة من المؤلفات في الفقه والتوحيد ، لعلماء سودانيين مثل:

- شرح مختصر خليل ، لكلّ من ضيف الله بن علي ومختار بن جوده الله.
- حاشية على مختصر خليل لمحمد بن عبد الله بن محمد الأغبش.
- حاشية على خليل ، لمحمود التنفار.
- رسالة في الفتاوى والأحكام ، لعبد الرحمن بن جابر.
- شرح الرسالة لمكي النحوي الرباطابي ، وله شرح لرسالة أبي زيد القيرواني.
- شرح أم البراهين الصغرى والكبرى لعي بن بري.
- الحاشية على أم البراهين الوسطى والصغرى والعمدة ، لمحمد بن المضوي ، كما كتب شرحا في بدء الأمالي لسراج الدين بن عثمان الأوشي. وله شرح لرسالة أبي زيد القيروني.
- شرح مقدمة السنوسي ، لكلّ من علي حمودة الكاهلي ، وغانم أبو ثمال وعبد القادر البكاري ، ومحمد بن عدلان الشايقي ، ومكي النحوي الرباطابي. كما نَظَم عبد الله بن دفع الله العكرمي نظمين على كبرى السنوسية ومقدمات الأشعرية ، وألّف مالك بن عبد الرحمن ولد حمدتو ثلاث حواشي في الميراث ، كبرى ووسطى وصغرى ، وشرح الجزرية في التجويد كل من المضوي محمد المضوي وعبد الرحمن بن حمد الأغبش [٢] .

---

(١) محمد سليمان: دور الأزهر في السودان.

(٢) انظر نفس المصدر السابق: ص٣٤.

عمت السودان نهضة دينية مرموقة ، فكانت البنت في دارفور سبّاقة للتعليم قبل الولد ، بل كان من شروط الزواج على عهد الدولة المهدية أن يكون الزوجان متعلمين. فلا غرابة أن نجد اليوم كثيراً من نساء دارفور المتقدمات في السن يحسن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن ، فقد ورثن ذلك تباعاً. فاشتهر من بين النساء السودانيات عدد غير قليل تخرجن من الخلاوى والدروس المسجدية ، منهن:

- فاطمة بنت جابر وابنتها آمنة وحفيدتها قوته.

- عائشة بنت محمد القدال بن إبراهيم بن عبودي المعروف بالفَرَضِي ، وكانت لها مدرسة على النيل الأبيض ، لتعليم الصبيان ، كما درس عليها الشيخ خوجلي.

- بتول الغبشة: كانت حافظة للقرآن ، ناسخة ماهرة للكتب ، ولها مدرسة لتعليم الصبيان في سنار.

- أمّونة بنت عبّود ، كانت لها مدرسة بدنقلا لتعليم الصبيان تنفق عليها من كسبها بغزل القطن وتشغيله.

- عائشة وآمنة ، من سيّدات كردفان ، عملتا في تعليم أبناء المسلمين في مسجد أنشأتاه لهذا الغرض.

- نَبَغت في قرية البشاقرة الجاز بنت إسماعيل حفيدة محمد راد الله «الأهزي».

- عُرِفت في الحلاوين أم كلثوم بنت القرشي ولد الزّين ، وكانت لها داخلية لإيواء الطالبات ، حيث لا تغادر البنت الداخلية إلا بعد حفظ القرآن الكريم[1].

وعامة فقد كان لطلاّب رواق السنارية ودارفور بالأزهر دورا معتبرا في نشر

(١) انظر نفس المصدر السابق: ص ٩٦.

الإسلام بالسودان ، وتوجيه التعليم الديني ، فتجاوز حدود التعليم التلقيني بالنظر في الكتب وتقديس المؤلفات التاريخية ، جاعلة من التعليم دروسا تفجر الفِكر وتهيئ الطالب لأن يكون مرشداً للأمة ومجتهداً يستنبط الأحكام ، ويتفتق العقل عن معاني اختزنها النص.

ولئن كانت الثقافة الدينية الفقهية قد استهوت قلة من طلاب العلم لانخراط الأغلبية في سلك المريدين ، فإن ذلك لم يعرقل مسيرة نشر الإسلام وتوطيد أركانه وإن خضع للمنهج الصوفي وحركات السالكين والمريدين ، الذي يُلزم بإتباع منهج عسير يقوم على التربية ومحاسبة النفس وتزكيتها مع ملازمة الشيخ ومداومة الذكر والتعبّد. والحقيقة فإن «الخلوة والمسيد والمسجد والشيخ ، والحيران واللّوح والقرآن هي ركائز أساسية في ثقافة الإنسان السوداني ، ظلّت تتعهّده بها مدارس سنار وكترانج وأربجي وديار المجاذيب والشايقية والفور ، وديار القرآن الأخرى والمشابهة في طول البلاد وعرضها ولقرون طويلة من الزمان» [١] .

فكانت الثورة المهدية نتاجاً لتلاقح الثقافة الفقهية والصوفية ، فقد تجمّع حول محمد أحمد المهدي الطلاب والميريدون يلقّنهم دعوته ويُعِدهم لإعلان الحركة المهدية ، التي دمّرت آخر معاقل المستعمر ، ومدّت نفوذها على كل التراب السوداني على مدار ثلاثة عشر عاماً ، مُقدّمة بذلك مثالا رائعاً للإرادة القتالية. إلاّ أنّه أخذ عنها أنّها لم تتمّكن من بعث مؤسّسة علمية شرعية تتحكّم في مسيرة التواصل ، وقادرة على استيعاب حركة التاريخ وفهمه ، وبذلك تمكّن الإنجليز من تصفيتها واجتثاث آثارها.

لقد ترك اندثار المهدية فراغا استغلّته مدارس التبشير التي ساندت حركة العلمنة في ظل النظام التعليمي الجديد ، الذي وضعت أسس كلية غردون التذكارية ، وبذلك اقتسم التعليم الرسمي مناصفة ، في حين همّشت المدارس

---

(١) التجاني عبد القادر: الجامعة والتغيير الاجتماعي، دار الفكر، (بدون تاريخ)، ص٢٦.

الوطنية المتواضعة ، كالمدرسة الأهلية التي أسّسها مؤتمر الخريجين ، كما لم يتجاوز دور معهد أمدرمان العلمي أن زاد فيه عدد الدارسين للفقه واللغة العربية ، حسب مناهج التدريس التاريخية ، وبقي بعيدا عن الانخراط في حركة التغيير والاستجابة لمتطلّبات المرحلة الحرجة. إلاّ أنّه لا يمكن تجاهل الدور الهام الذي لعبه مؤتمر الخريجين انتصارا للأمّة خاصّة تأسيس اتحاد الطلاب سنة ١٩٤١ ، والذي مثل رافدا هاماً لمسيرة معركة الهوية بالسودان [١] .

يعتبر نشر الإسلام في تلك الحقبة جزءا من تغير حضاري شامل تغلغل في أعماق الشخصية السودانية ، والتي كانت مهيئة لطبيعتها الذاتية لمثل هذا التحوّل الذي صبغت به كل مناشط الحياة ، وقيام ممالك إسلامية متعدّدة ، منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد ، توحّدت في نظمها التشريعية وقيمها الحضارية في الإطار الإسلامي الواسع [٢] . فالمرء لا يكاد يرى فارقاً كبيراً في النُّظم الإداريّة بين الفونج والعابدلاب والفور والمسيعاب ومملكة تقلي برغم تعدد السلطات السياسية ، حدّ التطابق في كثير من الجزئيّات ، دعامتها الطرق الصوفية والعلماء ومحورها المجتمع الإسلامي المتجاوب مع بيئته ، المتعايش سلما ، والمتفاعل إيجابيا في ظلّ التعدّد العرقي والتنوع الانثي.

وبرغم أن الحكم التركي (١٨٢١-١٨٨٥) قد أحدث تغيّرات في الواجهة السياسية وفعالياتها ، إلا أنه لم يستطع المساس بجوهر الشخصية السودانية التي حافظت على انسجامها وتطوّرها التدريجي ، ولعل الثورة المهدية خير تواصل للتجربة الإسلامية الأولى ، لأنّها لم تولد من فراغ ، بل كانت لها مرتكزات سابقة مكنتها من مقاومة الاستعمار والتصدّي للفكرة الغربية الوافدة.

---

(١) انظر: حسن مكي محمد أحمد:الحركة الطلابية السودانية بين الأمس واليوم، دار الفكر، الخرطوم، (بدون تاريخ)، ص٧.

(٢) انظر: أحمد محمد علي الحاكم: هوية السودان الثقافية منظور تاريخي، دار جامعة الخرطوم للنشر، (د ت) ص١٠١.

الحركة المهدية:

لم يكن الإمام المهدي من جملة الطلبة الذين التحقوا بالأزهر ، أو الذين جالسوا علماء الحجاز ، وغيرها من مضارب العلم الشرعي ، وإنما كان سوداني المنشأ والتكوين؛ فقها وفكراً. التحق بالخلوة صغيراً حيث حفظ القرآن الكريم ثم أخذ العلوم النقلية على يد «أمين الصويلح» في الجزيرة ، مواصلا تفقّهه على يد «محمد الخير» في خلوة الغبش ببربر ، حيث انتسب إلى الطريقة السمانية. وبرغم أنّ تكوين الإمام المهدي لم يخرج في جوهره عن الدراسات الفقهية المتداولة في معظم المدارس والمراكز الدينية الإسلامية يومها ، إلا أنّه كان يمتاز بالقدرة على الفهم والتعرف على دلالات النصوص ومقاصدها لا الوقوف عند ظاهرها.

ومما عرف عنه أنّه كان كثير القراءة في محيط العلوم الدينية ، جامعاً بين شيوخ المدرسة السلفية ، خاصّة ابن تيمية ، وأقطاب التصوّف كالإمام الغزالي والقطب محي الدين بن عربي وأحمد ابن إدريس ومحمد بن علي السنوسي. وبذلك بدأت تتشكّل المعالم الكبرى لتكوينه الشرعي ، الذي أبان عنه في كتاباته المتميزة بالطابع التقليدي ، حد المزج بين الفصحى والعامية. إلاّ أنّه كان يمتاز عن معاصريه بالإيجابية والمعالجة المباشرة وعدم الاشتغال بالبهرجة والتكلّف ، «وقد كان في كلامه قوة وحرارة تنبعثان من إيمانه العميق»[1] ، فيكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث والسيرة النبوية العطرة ، ولا يأخذ برأي المذاهب والمفسرين ، بل يقول :«هم رجال ونحن رجال ولو كانوا معنا لاتبعونا».

أخذ هذا الاتجاه صبغة عملية عند مناداته بالمهدية ، في محاولة للتخلّص من الطرق الصوفية والزعامات الدينية والولاءات المذهبية ، فقد ورد في بعض

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية: دار الجيل- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية ١٩٨١-ص٦٥.

المصنفات إشارات إلى أن المهدي المنتظر عند قيامه سيبطل المذاهب والفرق ، ويلغي الكتب القديمة ، ويتّجه بالمؤمنين في العالم الإسلامي إلى توحيد العقيدة والفقه ، ولربما كان هذا سبب اختلافه مع شيخه. ولا شكّ أنّ الإمام المهدي كان عالماً جليلاً ذا نزعة دينية صادقة وميولاً صوفية واضحة ، هي نتاج انتمائه للطريقة السمانية ، وعلى نمط إسلامي سلفي جمع بين الهداية الروحية والإصلاح الديني.

لقد أفصح عن دعوته وخاطب السودانيين ، وعن طريق الإسلام أيقظ فيهم روح الجهاد لاجتثاث الفساد ، ومحاربة البدع ومن يقف خلفها [١] . لذلك لم تكن حركته حركة حزبية ولا تجمعاً طائفياً ، كما وليست عملاً عنصرياً ، بل ترفض الانكفاء عن الذّات والصفوية ، وإنما هي عمل أمة ومسيرة شعب يتصل منهجها بالفهم الموضوعي لنصوص الشرع ، برغم بساطة التعبير ومحدودية التنزيل [٢] .

لقد حصل في الفكر الديني للمهدية تمازج نظري بين إحياء الدّين والعدل الاجتماعي والسياسي [٣] وتوحيد الممارسة والتفسير الموضوعي ، وهو يعكس تكويناً ذاتياً ، طورته معاناة روحية وعقلية عميقة ، تجاوزت الإطار الإقليمي والعرقي نحو أطراف الجنوب ، حتى ثار الدنكا في بحر الغزال على الحكم التركي بعد اتصالهم بالمهدي في «قدير» ثم بايعه وفد من الشلك في أم درمان ، وامتدت التأثيرات نحو جبال النوبة ، ممّا قُدّر للجنوب أن لا يخضع للإنجليز كلية إلاّ عام ١٩٢٨ [٤] . وبعد أن استتب الأمر داخلياً للمهدي اتجهت اهتماماته

---

(١) يوسف فضل حسن: العلماء المسلمون في سلطنة الفونج بسودان وادي النيل، ص٢٠٢، ضمن الندوة سابقة الذكر.

(٢) انظر الطاهر محمد علي بشير: جذور الوحدة الوطنية في السودان، طبعة ١٩٨٠ (بدون دار نشر)، ص٤٣.

(٣) بابكر موسى: التركية والمهدية في السودان، دار الثقافة للطباعة والنشر.

(٤) انظر عبد العزيز حسين الصاوي: الثورة المهدية، مشروع رؤية جديدة، دار القومية للثقافة والنشر- القاهرة (بدون تاريخ) ص٤٦.

إلى التبشير بدعوته خارجياً ، فراسل خديوي مصر وأهلها ، وإمبراطور الحبشة ، وأهالي مراكش وفاس ومالي وشنقيط في موريتانيا ، وسنوسي ليبيا ، وحياتو بن سعيد في «سوكوتو» ، ثم عيّنَ عثمان نور الدين والي الحرمين عاملاً على الحجاز.

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أن الإمام المهدي بالسودان قد استفاد كثيراً من عقيدة المهدي المنتظر التي ورد ذكرها في بعض المصادر الإسلامية ، وطوّع كثيراً من النصوص لتخدم مسلكه. وهو ما أُخذ عليه وجعله عرضة للنقد والطّعن من قبل بعض العلماء الذين اعتبروا دعوته خروجاً عن النظام الشرعي المتفق عليه وعلى سلطة الخلافة العثمانية ، وأنّها قلب للأوضاع وتعريض البلاد للأهوال ، وأنّه ليس أهلاً لذلك بل مدعياً يستغل بساطة رفاقه من أجل نعيم الدنيا. وفي مقابل هذا برز تعصّب مريديه الذين اعتبروه مكلّفاً بحمل أمانة تجديد الدّين ، وأنه رافع ألوية الإسلام الحق ، وقادم لإزالة دولة الترك التي خانت أمانة المسلمين ، متخلية عن تحكيم شرع الله واستبداله بقوانين وضعية.

وقد سوّغ المهدي لنفسه فهم النصوص ابتداء ، بعيداً عن التقليد أو الأخذ برأي الفقهاء والعلماء من سابقيه ومعاصريه ، ومنع ذلك الامتياز عن غيره. كما نسب لنفسه مصادر معرفية خاصّة ، مثل التلقي المباشر عن الرسول ﷺ والإلهام الربّاني. ومن ثمّ منع تداول الكتب والاجتهاد ، بمن فيهم رجال الدولة. ويشهد على ذلك حادثة عثور أحد عماله على كتاب «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة» ، فلم يجرأ على مجرّد فتحه أو التصرّف فيه ، بل أرسله محفوظاً إلى الإمام المهدي ، مُعلِماً إيّاه أنّه لم يطّلع على محتواه بدون إذنه.

وتكريسا لذات التوجّه أغلقت كل المدارس التي فتحت في العهد التركي على النمط الحديث ، ولم يُبق إلاّ على خلاوى تحفيظ القرآن الكريم ونشر الثقافة الدينية في صورتها البسيطة ، وحتى لما سُمِح بوضع المؤلفات ، سواء كان ذلك في عهده أو عهد خليفته ، فإنها لم تتجاوز محاور سيرة المهدي أو الدعوة إلى المهدية أو التأريخ للمهدية أو ردود على المعارضين. وهذا لا ينافي ما ذهبنا إليه من أن المهدية مثلت ظاهرة ثقافية ذات سمات خاصة وحركة أدبية معتبرة ،

ولكنّها موجّهة تتمحور حول فكرة واحدة هي الدعوة للمهدية.

تعتبر أم درمان (التي تعرف عند المهدية بالبقعة المباركة) ودنقلا و"أفافيت» في شرق السودان ، ثلاث مراكز لإشعاع ثقافة وفكر المهدية. ويرجع الفضل في تطوّر حركة النشر والتوزيع إلى المطبعة الحجرية المصرية التي غنمها الأنصار عند سقوط الخرطوم. وبذلك اشتدّت المنافسة بينها وبين النسّاخ الذين فقدوا مصدر رزقهم ، فنشطوا في نقل رسائل المهدي وتصنيفها في مجلّدات ، وأدخلوا فنون النقل كبيانات التّصحيح وعلاماته والتبويب والترتيب والتعليق والتقديم للنصوص ، كما عَثر النّساخ على منشورات أغفلتها المطبعة ، وفتحوا أبواباً لم يطرقها المصنفون.

خلاصة المبحث :

مثّلت المهدية حركة مواجهة على صعيدين اثنين:

ـ الصعيد الثقافي: حيث قامت المهدية مدافعة عن هوية الأمة ، متصدية للفكرة الغربية في شتّى صورها ، ناهضة في وجه حركات التبشير حليفة الاستعمار ، والتي قدمت السودان حاملة لمشروع استعماري في ثوب تنصيري ، فخاضت المهدية معركة وجود حقيقيّة بتحصين المسلمين من خطر الانفلات والانحراف والتصدي الحاسم لأسباب الردة ووسائل الإغراء.

ـ الصعيد الجهادي: بمقاومة الزحف التركي والاحتلال البريطاني على السواء. ولعل معارك المهدية في جزيرة أبا ، وتوشكي ، وكرري ، وشيكان ، وغيرها وقائع كبرى مثّلت الضمير الواعي في توجيه حركة الأمة نحو حماية هويتها وحفظ كيانها الثقافي.

فكانت المهدية بكلّ أطرها ومكوناتها وتنوّعها التأسيس الفعلي للحركة الوطنية السودانية الحديثة ، التي واصلت مسيرة صراع الهوية الحضارية ضد الوجود الأجنبي بكل رموزه ومؤسّساته. واعتبرت تلك الاسهامات التأسيسية الإرهاصات الفعلية لحركة الإسلام ، ولكن أكثر تنظماً وقدرة على فهم الواقع واستيعاب الأحداث ، وأكثر استعداداً لخوض معركة تجذير المشروع الإسلامي.